obeikandl.com

obeikandl.com

روضة الأمراء ودوحة الوزراء

تأليف

نقيب الأشراف وقاضي العسكر

الإمام محمد بن الحسين بن محمد الحسيني الأرموي

المتوفى سنة 650هـ

اعتنى به

محمد بن عبد الله أحمد

(أبو الفضل القونوي)

العبيكان
Obeikan

obeikandl.com

ح مكتبة العبيكان، 1430هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الأرموي، محمد بن الحسين
روضة الأمراء ودوحة الوزراء./ محمد بن الحسين الأرموي؛ محمد عبدالله أحمد. - الرياض، 1430هـ
174ص 14 × 21سم
ردمك: 978-9960-54-636-0
1 - أصول الفقه 2 - الفقه الشافعي أ- أحمد، محمد عبدالله (محقق) ب ـ العنوان
ديوي 251 933 /1430

رقم الإيداع: 933 /1430
ردمك: 978-9960-54-636-0

الطبعة الأولى
1430هـ/ 2009م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر
الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة
هاتف 2937574 /2937581 فاكس 2937588
ص. ب 67622 الرمز 11517

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan
الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة
هاتف 4160018 /4654424 فاكس 4650129
ص. ب 62807 الرمز 11595

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

obeikandl.com

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد: فقد وقفت من هذا الكتاب على نسختين خطيتين، الأولى في المكتبة المركزية للمخطوطات في قونية، والأخرى في مكتبة (طوبقابو) في إستنابول، فرأيت في نشره فوائد للقارئ لا تخفى على من تصفح أوراقه.

المؤلف

نسبه، هو: محمد بن الحسين بن محمد بن الحسين بن زيد بن الحسن بن ظفر بن محمد أبي الحسن بن الحسن بن الحسن بن أبي محمد الأحول بن أبي الحسن علي النقيب ببغداد بن محمد أبي جعفر ابن إبراهيم اليماني بن محمد بن عبيد الله بن موسى الكاظم بن جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. أبو عبدالله، شمس الدين، العلوي، الحسيني، الأرموي، الشافعي، نقيب الأشراف بمصر، وقاضي العسكر.

كان المؤلف من كبار الأئمة، وصدور الديار المصرية، وذكر من ترجم له أنَّ له يداً طولى في الأصول والنظر.

ولد في (أُرْمية) مدينة في أذربيجان سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمئة (578هـ)، وتفقَّه على شيخ الشيوخ صدر الدين أبي الحسن بن حمُّوية،

وصحبه مدة، وسافر معه في الرسلية إلى بغداد، وتقدم بصحبته وتميز واشتغل، وترسل بعد موته إلى البلاد الجزرية والشامية عن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل.

درَّس بمدرسة الشريف إسماعيل بن ثعلب الجعفري، سنة 630هـ، وكانت تعرف بمدرسة ابن زين التجار، فعرفت به فقيل لها: المدرسة الشريفية.

تولى نقابة السادة الأشراف، وقضاء العسكر في الدولة الأيوبية بمصر، في سنة 635هـ، قال المقريزي (ت845هـ): «والنقابة في ولده إلى اليوم»، وقد نصبه الملك الكامل نائباً عنه بدار العدل، فجلس فيه إلى أن مات الملك الكامل، ثم في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب. وكان حسن الهيئة، لطيف التوصل، مسامحاً، ساعياً في حوائج الناس، مشكوراً في أفعاله، مصدقاً في أقواله.

سمع الحديث بالقاهرة، وحدث بها وبدمشق وحلب.

توفي في الثالث عشر من شوال من سنة خمسين وستمئة بالقاهرة، ودفن بالقرافة[1].

هذا وصلى الله على محمد وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين

وكتب

محمد بن عبد الله أحمد

(أبو الفضل القونوي)

(1) انظر ترجمته في: صلة التكملة لوفيات النقلة ص 193 - 194، وتاريخ الإسلام /14 641، والوافي 3/17، والمقفى الكبير 5/597، والسلوك 1/385، وطبقات ابن قاضي شهبة 2/152، وطبقات الأسنوي 2/222.

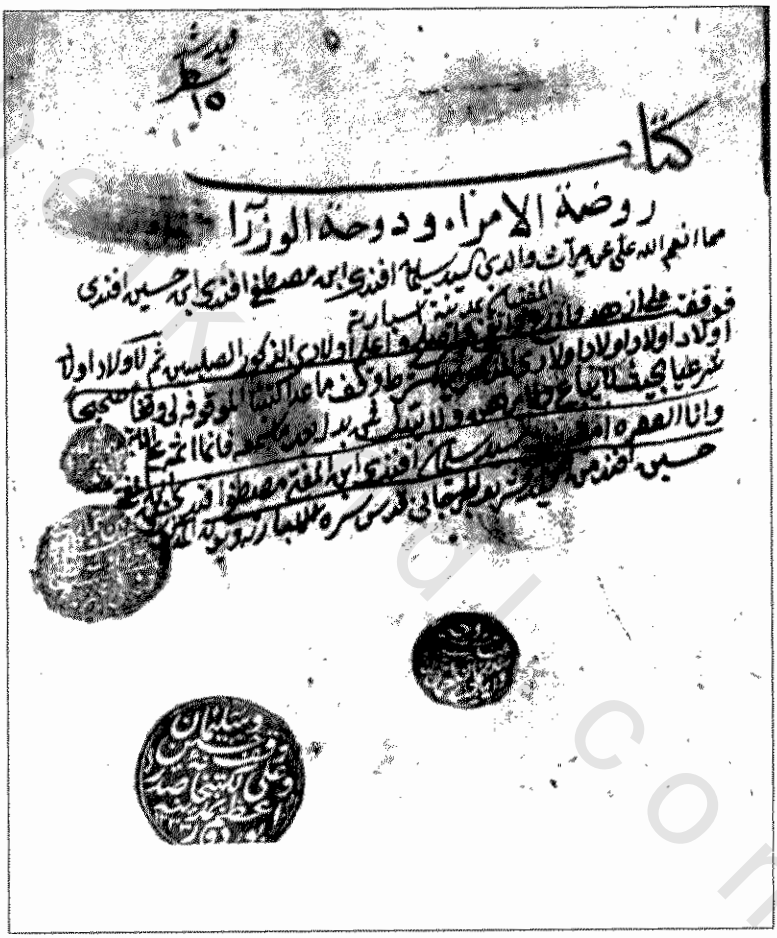
كتاب
روضة الامراء ودوحة الوزراء

نسخة (قونية)

نسخة (طوبقابو)

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إلـه إلا الله، ولا نعبد إلا إيـاه، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[1]، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾[2]، وأن أكافئ بالدعاء إنعامَ من أحسن إلي، امتثالاً لقول الله تعالى في سورة الرحمن: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾[3] وقول خاتم الأنبياء، وسيد الأصفياء، محمدٍ رسول الله ﷺ، وعلى آله البررة الأتقياء: «مَنْ لم يشكرِ الناسَ لم يشكرِ اللَّهَ» وقوله عليه السلام: «مَنْ أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا له، حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه».

وقد أجمعَ أربابُ الألبابِ، أنَّ شكرَ المنعم واجبٌ عقلاً ونقلاً من السنة والكتاب، فالبداية بحمد الله أحقُّ وأَولى، لأنه المُنعِمُ والمَولى، وربُّ الآخرة والأولى.

الحمد لله الذي امتنَّ على الإنسان بتفهيمه فوائدَ البيان، واختصَّ بسوابق الكرم، في تعليمه الخطَّ بالقلم، وجَلَّله بسوابغ النعم والإحسان، وجمَّله بما ألهمه من الإيمان، وصلَّى الله على نبيه الذي نُصِرَ بالقرآن نَصْراً، وحَكَمَ: «أنَّ مِن البيان لسحراً»، وإنما بُعِثَ عليه الصلاة والسلام في زمن الفصحاء، وأُطلع على آفاق البلغاء، وأُيِّد بكتاب معجزٍ؛ الفرقان، باهر البرهان، فالتَمَعَ بنوره قوى الأبصار، وانتشر دينُه في الأقطار

(1) الأعراف: الآية (43).
(2) النمل: الآية (19)، الأحقاف: الآية (15).
(3) الرحمن: الآية (60).

والأمصار، فلله الحمد دائماً على ما منَّ به من التعلُّم والتعليم، وآتاناه من حسن التفهُّم والتفهيم، وهو أهل للمزيد من نعمته، والتجديد لمواهبه ورحمته، إنه حميدٌ مجيدٌ، فعَّالٌ لما يريدُ.

أما بعد:

فإنّ أحقّ من يُمّمت أبوابه، ولثمت أعتابه، وحُطَّت بفنائه الرحال، وخُطَّت بثنائه أنامل الرجال، وعُرف أنَّ حَرَمَهُ متّسعُ الرحابِ، خصيب المراد والجناب، وعزمه شديد البطش والالتهاب، وشبابُ جوده دائم النضارة على دوام الأعوام والأحقاب، وشمسُ كرمه مُستمرّة الطلوع، لا يُلِمُّ بها الغروبُ والأفول، وكرمُ سخائهِ لا يتجاسر عليه الجفاف والذبول، وجيادُ عطائه لا تفارقها الغُرَرُ والأوضاح والحُجُول، الصاحبُ الأعظم، الآصفُ المعظَّم، العادلُ الفاضل الأعلم، منصور اللواء والعَلَم، ربّ الفضيلتين السيف والقلم، معدن الرحمة والرأفة والجود والكَرَم، ناصر الحق والدين، بهاءُ الإسلام والمسلمين، ناصحُ الملوك والسلاطين، ناصرُ عصابة الموحدين، قامعُ الفجرة والمفسدين، ملجأُ الفضلاءِ والفصحاء والمتعبدين، محبُّ الفقراء والعلماء والصالحين، أسبغَ الله على البرايا ظلاله، وأفاض على الرعايا إفضاله، وبلّغه في الدارين آماله، وختم بالصالحات أعماله، قد استولى من هذه الصفات على أحسنها، واحتوى من هذه السمات على أزينها، وحلَّت آراؤه في أمنع معاقل العقل وأحصنها، وانتمى في الفضل إلى نسب فيه عريق، وشَهِدَتْ دوحة الوزارة أنه في فنونها الفَنُّ الناضر الوريق، وبحره في بحار أنعمه تدعو: الغريقَ الغريقَ، تعالت أوصافُه عن إدراك المدّاح، وتعلقت بأذيال مساعيه أيدي الفلاح والنجاح، وبلغَتِ الدولةُ القاهرةُ، والمعدلةُ الزاهرةُ، من وزارته غايةَ الأماني، ونهاية

الأفراح، وجرت مواهبه إلى العُفاة[1] جَريَ الرياح في البِطاح، ونادت هِمَّته العاليـة بأرفع صوتها: حيّ على السَّماح، بسيـطُ نواله شاملٌ، ووجيز مقاله كامل، ومهذَّب خصاله عامل، يتولى الإصلاح سامي قدره مفضّل، ومُجملٌ أفعاله مفصل، محبه آخر وأول، كالعيون المرضى الصحاح:

إنّ الوزارة كانت في الألى سَلَفُوا
مـا إن تعيشُ وتبقى حمةُ الولدِ
لكـن بمثلـك في عُـرب وفي عجـم
مذ سارت الأفلاك لم تحبَلْ ولم تَلدِ

واختُصّ أسبـغ الله ظلالـه، وضاعـف جلالَـه في هذا الزمـان بكرمِ الشمائل، وظهر في الآفـاق على الرفاق بآيات الفضائل، وتُلِيَتْ سُوَرُ مجده في المحاضر والمحافل، بألسنة البلغاء والفصحاء الأفاضل، وانعقد الإجماع علـى أنه أسبغ الله ظله أوجهُ الوسائـل، ومقصدُ كلِّ سائل، فأصله طاهر، وفضله ظاهر، وعلمه باهر، وحلمه زاهر، قد علا في الوقار منكبَ الجوزاء، ودنا بالتواضع حتى عُدَّ من الأكْفَاء:

دنـوتَ تواضعاً وعلـوتَ قَـدْراً
فشـأنـاك انـحـدارٌ وارتـفـاعُ
كذاك الشمسُ تَبْعُد أن تُسامَى
ويدنو الضوء منها والشعاع

متعـه الله وأخاه بما خَوَّلَهما من المَجْدِ والعلاء، واستجاب فيهما صالح الدعاء، عموم الأوقات والآناء، فهما ركنا الإسلام، وكعبتا الجود للأنام:

(1) العفاة: طالبو خيراته.

هما كَعْبتا قَصْدي أَحُجُّ إليهما
أُقَبِّلُ بالخدَّيْنِ شَوْقاً ثَراهما

إذا ما دعا المكارم دعوةً
إلى الحَسَبِ الزَّاكي أجابتْ نداهما

ولو قيل مَنْ للعِلمِ والدِّينِ والعُلى
لقال الأعادي والصديقُ هما هما

فأعزّ الله نصرَهما، وشدّ أزرهما، ورفع قدرَهما، ووضع وزرَهما.

ولما كانت يمينُ العبدِ لليسار مُرجاةً، وبضاعته في الفضل مُزْجَاةً، ودَارُهُ فيها مُكْتَراةً لا مشتراةً، ولم يجدْ بُدّاً من تُحفةٍ يُتحِفُ بها مولاه، أو نَفْحَةٍ ثناء يَتضَوَّع بها عَرْفُ الشكر عمَّا أولاه، ألَّفَ كتاباً يَشتَمِلُ على سيرة الملوك والعظماء، والسادات الأكابر والأمراء، وأردفه بكتاب مختصر في حِلْية الوزراء، جمع سيرةَ ملوكِ العجمِ والعربِ، وشيئاً من كلامِ أهلِ الحكمةِ والأدب، وآياتٍ من القرآن في أولِ كلِّ بابٍ، وأحاديثَ صحيحةً من مأثور الخطابِ[1]، وحكاياتٍ لائقةً، واستشهاداتٍ رائقةً، يتجلَّى الناظرُ بِلَحْظِها، ويَتَحَلَّى الخاطر بِحِفْظِها، وسمَّيته: «روضةَ الأمراءِ ودوحةَ الوزراء».

وأتْحَفْتُه لخزانة كتب مولانا الصاحب، المطعِم الساغب، مولى الإحسان ومولى كل إنسان، لازالت ولايات المسالك إليه فقيرة، ووجوه الممالك به مستنيرة، وأيدي الحوادث عن ساحته مغلولة، وسيوف الأقدار دون دولته مفلولة، ما دار فَلَكٌ وسَبَّحَ ملَك.

(1) قول المؤلف إن أحاديث كتابه صحيحة، قول غير صحيح فإن فيه مما لا يصح الكثير.

والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب، وهذا هو فهرست الأبواب:

الباب الأول: في نفعِ الأئمة، وفَضلِ مَن عدل في الرعية.

الباب الثاني: في مَن هو أولى بالإمارة، ومن أنصف في الولاية.

الباب الثالث: في ضرر السلطان حين انقلب الزمان.

الباب الرابع: في ما قيل في العدل والإنصاف من الأوائل والأسلاف.

الباب الخامس: في عقوبة من جارَ واعتدى، وظَلَم الناس وبَغَى.

الباب السادس: في ذكر انتقام الله مِنَ الخَلْقِ إذا استهانوا بالحقّ.

الباب السابع: في ذكر السؤدد وسير الرئاسة.

الباب الثامن: في ذكر السياسة وتحصين السيادة.

الباب التاسع: في آفة الرياسة، وشدة الحراسة.

الباب العاشر: فيما قيل في طاعة الأمراء، والصبر على البلاء.

الباب الحادي عشر: فيما قيل إنه لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق.

الباب الثاني عشر: فيمن خاطر في الله بالمشافهة، ولم يدفع بالمداهنة.

الباب الثالث عشر: فيما قيل فيمن باشر العفة والسلامة، وامتنع من الخطر والملامة.

الباب الرابع عشر: في فضل مَنْ عدل في الرعية وضبط الأمر على الحقيقة.

الباب الخامس عشر: فيمن أبى من الولاة الرشوة، ومن امتنع منهم عن قَبول الهدية.

الباب السادس عشر: في ذكر الظُلْم والمظالم، وتبعات الخصوم والملازم.

الباب السابع عشر: فيمن لم ينتصر من الظَلُوم، ويكله إلى الحي القيوم.

obeikandl.com

الباب الثامن عشر: في عقوبة من أيَّد الظلمة، وأعان الخونة.

الباب التاسع عشر: في مواعظ العلماء ووصاياهم للخلفاء.

الباب العشرون: في تواضع الأمراء وانبساط العظماء.

الباب الحادي والعشرون: في نصيحة أهل السلوك للأمراء والملوك.

الباب الثاني والعشرون: في وصف ملوك الأعاجم، ورسومهم بالمكارم.

الباب الثالث والعشرون: في ذكر المروءة، وحسن الفتوة.

الباب الرابع والعشرون: في ذكر الغوث والتظلم، وسدّ الخلل والتّثلّم.

الباب الخامس والعشرون: في آفة قتل المسلم، وإهراق دم المستسلم.

الباب السادس والعشرون: في من أسعف بقضاء الحاجات، وجاد في العطيات.

الباب السابع والعشرون: في حلم السادات، واحتمال الهفوات.

الباب الثامن والعشرون: في ذكر خطب الملوك عند الفتوح، وبلاغتهم مع الوضوح.

الباب التاسع والعشرون: في أدب الكُتّاب، وما قيل في الخطّ والآداب.

الباب الثلاثون: في حسن المؤازرة، وإتقان سِرّ المشاورة، وبه ختم الكتاب.

ونسأل الله حسن التوفيق والتيسير، إنّ ذلك على الله يسير،

وإليه المصير، وإنه نعم المولى ونعم النصير.

الباب الأول

في نفع الأئمة، وفضل من عدل في الرعية

قال الله تعالى في محكم كتابه، ومُبرَم خطابه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾[1].

وقال النبي ﷺ: «يومٌ واحدٌ مِن إمامٍ عادل، أفضلُ من عبادة رجل واحد سبعين سنة».

وقال أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: «يكفيك من إمارةِ البرِّ والفاجرِ، العدلُ في الحكم، والقَسْمُ بالسوية، وإقامةُ الحدودِ للقريب والبعيد».

وقال كعب الأحبار: «مثل الإسلام والسلطان في الناس مثل الفسطاط والعمود والأطناب والأوتاد لا يصلح بعضه إلا ببعض».

وقال مطرّف بن الشِّخّير: «إني لأظن أنّ لو رُفِعَ هذا السلطانُ من الأرض أنّ ليس لله في خلقهِ حاجةً».

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «لولا هارون[2] أمير المؤمنين ماطفتم بهذا البيت، ولَسَلَبَكم الأعراب»، قال: «وسمعَ رسول الله ﷺ رجلاً

(1) النحل: الآية (90).

(2) يعني: هارون الرشيد، رحمه الله تعالى، ورحم مُوَحِّد المملكة العربية السعودية الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود.

يقول: بئس الشيء الإمارةُ، فقال رسول الله ﷺ: نِعْمَ الشيءُ الإمارةُ لمن أَخَذَ بحقِّها، وأدَّى حقَّها».

وقال الحسن ﷺ: «لولا الشيطانُ لما هَلَكَ بنو آدم، ولولا العلماء لصارَ الناسُ مثلَ البهائم، ولولا الصالحون لهلك الطالحون، ولولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضاً».

وقالَ وهبُ بنُ مُنَبِّهٍ: «إذا همَّ السلطانُ بالعدلِ، أو عملَ به أَدخَلَ الله البركةَ على أهلِ مملكته، حتى في الأسواقِ والأرزاقِ والزروعِ والضروعِ، وعلى كلِّ شيءٍ، وإذا هَمَّ بالجَوْرِ أو عَمِلَ به أدخلَ الله النقصَ في أهلِ مملكته، حتى في الأسواقِ والأرزاقِ والزروعِ والضروعِ، وعلى كلِّ شيءٍ».

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «قامتِ الدنيا بعالمٍ يشتغلُ بعلمه، وبغنيٍّ لا يبخل بماله عن حقّ الله، وبفقيرٍ صابر، لا يبيع آخرته بدنياه، وبجاهلٍ لا يستكبر عن التعلم، وبسلطانٍ عادلٍ، يحكم بين رعيته بالعدلِ، فإذا كتمَ العالمُ علمَه، وبَخِلَ الغنيُّ، وجَزِعَ الفقيرُ، ولم يتعلمِ الجاهلُ، ولم يعدِلِ السلطانُ، فعند ذلك يَعرِفُ العارفون: أنّ الدارَ قد رجَعَتْ إلى بَدْئِها، فلا تَغْتَرَّنَّ بكثرة المساجد، وجماعةِ الأقوام، فإن أجسادهمَ مُؤْتَلِفَةٌ وقلوبَهم مختلفةٌ» فقيل: يا أمير المؤمنين، فكيف سيرةُ المؤمنِ يومئذٍ؟ فقال: «يُخالِطُهم في الظاهِرِ، ويُخالفهم في الباطِنِ».

وقال أبو حازم لسليمان بن عبد الملك: «يا أمير المؤمنين، إن السلطان سُوقٌ، فما نَفَقَ عنده أُتِي به».

وقالَ رسول الله ﷺ: «إنَّ اللَّهَ ليؤيدُ هذا الدينَ بأقوامٍ لا خَلاقَ لهم».

وقال ابن المقفع: «مَثَلُ السلطانِ كمثلِ المطر، فيه الرعدُ والبرقُ والسيل، وفيه منافعُ للحرثِ والدوابِّ والشربِ، وسائر المنافع، وكالليلِ فيه الظلمة والأهاويل[1]، وفيه الستر والسكونُ، وكالشتاء فيه البردُ والثلجُ، وفيه السكونُ من الهوامِّ والضواري، وكالصيف فيه ما يضرُّ وما ينفعُ».

وقال داود عليه السلام فيما ناجى ربَّه: «أخبرني بأحِبَّائك من خلقك أُحِبّهم فيك» فأوحى الله تعالى إليه: «يا داود، سلطانٌ يرحمُ الناسَ، ويحكمُ لهم كما يحكم لنفسه».

وقال عمرو بن العاص لابنه: «يابني، إمامٌ عادلٌ خير من مطرٍ وابلٍ، وأسدٌ حَطومٌ[2]، خير من سلطانٍ ظلوم، وسلطانٌ ظلومٌ خيرٌ من فتنةٍ تدوم، ولأن تُمازَح وأنت مجنون خير من أن تمازِح مجنوناً، وزلة الرِّجْلِ عَظْمٌ يُجْبَرَ، وزلة اللسان لا تبقي ولا تذر، واستراح من لا عقل له».

وقال بعض الحكماء: «من كتم للسلطان نُصْحَهُ، وللأطباء مرضَه، وللإخوان مشورَته، فقد خان نفسَه، وشَمِتَ به عدوُّه، والندامة تلحقه».

وقال الثعلبي: «النفعُ ثلاثةُ أحرفٍ، ولكلِّ حرفٍ معنى، أولُه: ناظرٌ في أمورِ الرعية، الدقيقِ منها والجليلِ، وفاعلُ الخيرِ عليها في الضراءِ والسراءِ، وعطوفٌ فيها شاهدُها وغائبُها»، وسنختِمُ كلَّ بابٍ من هذه الأبوابِ بحكايةٍ لائقةٍ.

الحكاية

حكي: أنّ (أنوشروانَ) أظهرَ يوماً من أيامِ ملِكه أنه مريضٌ، وأنفَذَ ثقاتَه أن يطوفوا في أقطارِ مملكتهِ، وأكنافِ ولايتهِ، ويطلبوا لَبِنةً عتيقةً في

(1) الأهاويل: جمع هول، وهو الخوف والفزع، أي: فيها المخاوف والأهوال والشدائد.
(2) حطوم: ضارٍ يحطم فريسته.

قريةٍ خربةٍ، ليتداوى بها، فطافوا جميع ولاياتهِ، ثم عادوا فقالوا: ما وجدنا في جميع المملكة مكاناً خَرِباً، ولا لبنةً عتيقةً، ففرح أنوشروان، وشكر إلهَهُ، وقال: إنما أردتُ بهذا أن أُجرِّبَ ولايتي، وأختبر إيالتي، لأعلم هل بقي في المملكة موضعُ خرابٍ لأعمره!؟ فالآنَ لم يبقَ مكانٌ إلا هو عامرٌ، فقد تمَّت أمورُ المملكة، وانتظمتِ الأحوال، ووصلتِ العِمارةُ إلى درجةِ الكمالِ».

obeikandl.com

الباب الثاني

فيمن هو أولى بالإمارة، ومن أنصف في الولاية

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾[1].

وقال بلال بن سعد: «سُئِلَ رسولُ الله ﷺ: مَنِ الخليفةُ بعدك؟ قال: مَن عدَل في البسط، وأقسطَ في القِسمة، ورحمَ أهلَ الرحمةِ»، قيل: ومَنْ لم يكن كذلك؟ قال: يَرُدُّ الطاعةَ على أهلِ الطاعةِ، ويَرُدُّ المعصيةَ على أهلِ المعصية.

وقال علي بن أبي طالب ﷺ: «على الملكِ ألا يَعْجَلَ بثلاثٍ، ويعمل بخصالِ ثلاثٍ:

- تأخيرُ العقوبةِ في سلطانِ الغضبِ.
- وتعجيلُ المكافأةِ للمحسنِ.
- والعملُ بالأناةِ فيما يحدث، فإنَّ له في تأخيرِ العقوبةِ إمكانَ العفوِ، وفي تعجيلِ المكافأةِ بالإحسانِ، المسارعةُ في الطاعةِ من الرعيةِ، وفي الأناةِ انفساحُ الرأي، وإيضاحُ الصواب.

وقال ابن المقفَّع: «لا يُعَدُّ الكَذُوب ملكاً، لأنه لا يقدرُ أحدٌ أن يستكرهَه على ما يريدهُ، وليس له أن يغضبَ لأن القدرةَ من وراءِ حاجَته، وليس له أن يبخلَ لأنه أقلُّ الناسِ عذراً على خوف الفقر».

---

(1) المائدة: الآية (55).

قال: واستشارَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ في قومٍ يستعملهم، فقيلَ له: عليك بأهلِ العدل، قال: ومن هم؟ قال: الذين إن عدلوا فهم ما رجوت فيهم، وإن قَصَّروا قال الناسُ: اجتهدَ عمر.

قال: وأوصى ملكٌ وليَّ عهدِه، فقال: اتقِ مَنْ فَوقَكَ يَتَّقِ مَنْ تحتَك، وكما تحبُّ أن يُفْعَلَ بكَ فافعلْ بغيركَ من رعيتِك، وانظُر إلى كلِّ حسنٍ فالزمْهُ، وأكثِرْ منه، وإلى كلِّ قبيحٍ فارفضْه واتركْه، واختَرْ أهلَ الدينِ والعلمِ على غيرِهم.

وقال رسول الله ﷺ: «السلطانُ ظلُّ الله في الأرضِ، مَنْ نصحَ لخلقِ الله هُدِيَ، ومن غشَّهم غويَ».

وقال عبدُالله بن ساباط: «لما حضرتْ أبا بكر الوفاةُ قال: أيها الناسُ إني ولَّيتُ عليكم عمرَ بنَ الخطابِ، فإن يعدِلْ فذاك ظني به، ورجائي فيه، وإن كان غيرَ ذلك فالخيرَ أردتُ، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾[1].

الحكاية

وحكي: أن الرشيدَ أحضَرَ رجلاً ليوليَه عملاً، فقال له: إني لا أحسنُ العملَ، ولا فِقهَ لي، فقال له الرشيدُ: فيك ثلاثُ خصالٍ: لك الشرفُ، والشرفُ يمنع صاحبه من الدناءةِ، ولك الحِلمُ، والحِلم يمنع صاحبه من العجلة، وَمَنْ لم يعجلْ قلّ خطؤُه، وأنتَ رجلٌ تشاورُ في الأمرِ، ومَنْ يشاورْ في الأمرِ كَثُرَ صوابُه، وأما الفقهُ فسنضمُّ إليك من تفقَّهُ به فولي، فما وَجَدَ فيه مطعناً.

(1) الشعراء: الآية (227).

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ: أيُّ الملوكِ أفضلُ؟ قال: من أنصفَ الرعيةَ، وجادَ في العطيةَ، وأَمِنَ منه البريةُ.

وقال (برويز) لابنه: يا بُنَيَّ لا توسعَنَّ على جندك، فيستغنوا عنكَ، ولا تضيقنَّ فيضجروا، ولكن أَعطِهِم قَصداً، وامنعهم منعاً جميلاً، ووسِّعْ عليهم في الرجاء، ولا توسِّعْ عليهم العطاءَ.

وقال بَزرُجمهور: رأسُ أعمالِ الملوك ثلاثةٌ: كشفُ الضُرِّ، وإحداثُ الخيرِ، وكفُّ الشرِّ.

وقال الثعلبي: إنَّ السلطان أَحْرُفُه خمسةٌ، فينبغي لصاحبهِ بكلِّ حرفٍ خَلَّة، ينبغي أن يكونَ ساطعَ العدلِ، لطيف الشفقةِ، طاهراً من الخيانةِ، أليفَ الهمم ناصحَ الرعيةِ.

obeikandl.com

الباب الثالث

في ضرر السلطان حين انقلب الزمان

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ: «إذا جارَ السلطانُ قحطتِ السماءُ، وإذا منعَ الزكاة هلكتِ المواشي».

وقال عمرُ بنُ الخطابِ ﷺ: «إنَّ من الفواقِرِ سلطاناً إن أحسنتَ لم يحمدْكَ، وإن أسأْتَ قتلَكَ».

وقالَ رجلٌ لابنِ مسعودٍ: متى أَضِلُّ وأنا أعلمُ؟ قال: إذا كان عليك أمراءُ، إن أطعتهم أدخلوكَ النارَ، وإن عصيتهم قتلوكَ.

وقال بُزرُجمهر: قواصمُ الظهرِ: إمامٌ جائرٌ، إنْ أطعتَه أكفرَكَ، وإن عصيتَه أهلكَكَ.

وقال بعضُ الفلاسفةِ: شرُّ المالِ ما لا يُنفَقُ، وشرُّ الإخوانِ الخاذلُ، وشرُّ السلطانِ مَنْ خافَ منه البريءُ، وأَمِنَ منه المجرمُ، وشرُّ الجيرانِ الحاسدُ، وشرُّ البلدانِ ما ليس فيه خِصْبٌ ولا أمنٌ.

وقال الحُرُّ بنُ يزيد: عجباً لمن ظلمَ غيرَه كيف يُنصفُ نفسه؟! وعجباً لمن أنصفَ نفْسَه كيف يظلمُ غيرَه؟!.

---

(1) الأنفال: الآية (25).

وقال لقمانُ لابنهِ: يابُنَيَّ لا تُعَادِ الملوكَ فيقتلوكَ، فإن عُقُولَهم كعقولِ الصبيان، وبَطشَهُم كبطشِ الأسدِ، ومثلُهم كمثلِ النارِ، إن دنوتَ منها أحرقتك، وإن تباعدتَ منها نجوتَ.

وقال فضيلٌ: إن اللَّهَ لا يهلكُ الرعيةَ وإن كانت ظالمةً، إذا كان الأئمةُ هادين مهدين، وتهلَكُ وإن كانتْ هاديةً مهديةً ـ إذا كان الأئمةُ ظالمين، لأن أعمالَ الأئمةِ تعلو أعمالَ الرعيةِ.

وقال معاويةُ لابنِ الواصفِ: صِفْ لَيَ الزمانَ، فقالَ: أنتَ الزمانُ، فإن تفسُدْ يفسُدْ، وإن تَصلُحْ يَصلُحْ، قال: ودَخَل أبو حازمٍ على بعضِ الأمراءِ، قال وما حاجتك يا أبا حازم؟ قال: تركتَ الناسَ على البابِ، فإن أذنتَ لأهلِ الشرِّ تباعَدَ أهلُ الخيرِ، وإن أذنتَ لأهلِ الخيرَ تباعدَ أهلُ الشرِّ.

وقال: أحرفُ السلطانِ ينبغي لصاحبِهِ بكلِّ حرفِ خصلةٌ، ينبغي أنْ يكونَ سامعَ التَّظلُّم، سَنِيَّ الرتبِ، لطيفَ الإجابةِ، ليِّنَ الجانبِ، طاهراً من الجورِ، طلوباً للثأر، أهيبَ الناسِ من الجور، نقيَ الأثرِ، نائي الفِشِّ.

الحكاية

حكي: أن ملكاً في الزمانِ الأولِ خرجَ متصيِّداً، فأصابه البردُ حتى جَمَدَ على الفرسِ، فجاءَ به الفرسُ إلى بابِ قصرِ مَلِكَةٍ، فأمرتْ أن يأخذوه ويعالجوه بقصبِ السكَّرِ حتى أفاق، ورجعَ إلى حاله، فنظر الملكُ إلى مملكةِ تلك المرأةِ فأعجبه، وهمّ أن يغزو إليها، ويأخذ ملكَها عُنوةً، فعقل ماء السكر في القصبِ بعد ذلك، فقالتِ الملكةُ: إن الرجلَ الداهشَ ينبغي أن يكونَ من الملوكِ، وقد همَّ بالجور والشرِّ، فمِنْ ذلك عَقِلَ الماءُ في القصبِ، فذُكرَ ذلك له، فاعترفَ وندِمَ، فبعدَ ذلك ردَّ الماءَ منه.

الباب الرابع

ما قيل في العدل والإنصاف من الأوائل والأسلاف

قال الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ: «يُقال للإمام العدلِ يوم القيامة إذا خَرجَ من قبرِهِ: أبشرْ، فإنك رفيقُ محمد ﷺ».

وقال سعيد بن جبير: أكثروا ذِكْرَ عمرَ، فإنه إذا ذُكِرَ عمرُ ذُكِرَ العدلُ، وإذا ذكر العدلُ ذُكِرَ الله.

وقال الضحاكُ في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾[2]: قال ابن عَبّاس: الحاء حربُ قريشٍ، والميمُ ملكُ بني أمية، والعينُ الخلافةُ العباسيةُ، والسينُ غلبةُ السفيان، والقافُ القائمُ بحقِّ الله، يملؤها عدلاً، كما مُلِئَتْ جوراً، وهو المهدي.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا مهدي إلا عيسى بنُ مريمَ».

وقال عمرُ بنُ الخطابِ: مَنْ ينصفِ الناسَ مِنْ نفسهِ يُعطَى الظفرَ في أمرِه.

---

(1) النساء: الآية (135).

(2) الشورى: الآيات (1 - 2).

قال: وحكمَ عمرُ بنُ الخطابِ يوماً حكومة، فزيَّنها بعضُ مَنْ في مجلسه، ورضيها له، فقال له عمرُ: وما يعجبُ ذلك مني، فقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ، وعرفتُ الجنةَ والنارَ، وأعجبُ من عدلي عدلُ (أنوشروان) الكافرِ[1]، فلقد اتخذ قصراً، وأنفقَ فيه مئةَ ألفٍ، فلما دخلَه الناسُ قال: كيف ترونَ بنائي؟ قالوا: ما أجلّه، لولا شطورٌ فيه، قال: نعم ذلك بيتُ العجوزِ لزيقُ حائطي، طلبتُه منها بملىء بيتها وَرِقاً وذهباً، فأبتْ فكرهتُ أن أُضِرَّ بها، وأغتصبها.

قال: ودخل عثمانُ بن عفان ﷺ يوماً على غلامٍ له يعلفُ ناقةً، فرأى في علفِه ما كَرِهَ، فأخذ بأذنِ الغلامِ فعركها، ثم ندمَ فقال لغلامِه: خذ بأذني يا غلام فاعركها!! فأبى الغلامُ، فلم يدعه حتى أخذَ بأذنه، وجعل يقول: شدَّ شدَّ، حتى ظنَّ منه أنه قد بلغ منه ما بلغ به، ثم قال: ولقصاصُ الدنيا قبل قصاصِ الآخرةِ.

ورُئِي عليٌّ بنُ أبي طالبٍ، بيده سيفٌ يبيعه، ويقول: من يشتري مني سيفي، فلو كان لي ثمنُ إزارٍ ما بعتهُ، وكانَ يومئذٍ خليفةً!!

ولّما وَلِيَ عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ قالتِ الرعاةُ في رؤوسِ الجبالِ: مَنْ هذا الخليفةُ الصالحُ الذي قامَ على الناسِ؟ قيلَ وما عِلمكُم بذلك؟ قالوا: متى ما قام على الناسِ خليفةٌ صالحٌ، كفّ الأسدُ والذئبُ عن شياهنا.

وقال عبد الرحمن بن جُلَيْبٍ: «مكتوبٌ على سرير (أنوشروان)، على كل قائمةٍ كلمةٌ؛ على أولها: لا تتمُّ الإمارةُ إلا بالرجال، وعلى الثاني مكتوبٌ: لا تكونُ الرجالُ إلا بالأموالِ، وعلى الثالثةِ مكتوبٌ: لا تكونُ الأموالُ إلا بالعمارةِ، وعلى الرابعةِ مكتوبٌ: لا تكون العمارةُ إلا بالعدلِ.

(1) هذه الرواية تحمل في طيها علائم الكذب.

الحكاية

قيلَ: دخلَ بعضُ الزهادِ على بعضِ الخلفاءِ، فقال له: عِظْني وأوجز، فقال: يا أميرَ المؤمنينَ، كنتُ أسافر إلى الصينِ، فقدمتها مرةً، وقد أُصيب مَلِكُها بسمعه، فبكى بكاءً شديداً، فقال له جلساؤه: وما يبكيكَ في ذلك؟ فقال: أما إني لستُ أبكي على البليةِ النازلةِ بأذني، ولكنْ أبكي لمظلومٍ يصرخُ فلا يُؤذنُ له، ولا أسمعُ صوتَه، ثم قال: لو ذهبَ سمعي فإنَّ بصري لم يذهبْ، ثم نادى في الناس: لا يلبس ثوباً أحمرَ إلا المتظلمُ، فكان يركبُ كلَّ يومٍ على الفيلِ، ويدورُ في البلدِ، فكلُّ من رآه، وعليه لباسٌ أحمرُ حكمَ له، ثمّ يبسطُ العدلَ فيهم، حتى لم يبقَ مظلومٌ إلا وانتصف له من ظالِمِه، ثمّ تفرغَ لحاجتِه ولهوه، فهذا يا أميرَ المؤمنين مشركٌ بالله قد غلبتْ رأفتُه بالمشركين، وأنتَ مؤمنٌ بالله، ومن عترة رسول الله ﷺ، فلتغلب رأفتُك بالمسلمين.

obeikandl.com

الباب الخامس

في عقوبةِ مَن جارَ واعتدى، وظَلَمَ الناسَ وبغى

قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾[1].

وقال النبيّ ﷺ: «إنَّ في النار وادياً إذا فُتِحَ ذلك الوادي استغاثَ بالله جهنمُ من حرّه، وفي ذلك الوادي بئرٌ إذا فُتحتْ استغاثَ بالله ذلك الوادي من حرِها، وفيها يدخل أهلُ الجَورِ من العمالِ والأمراءِ.

وقال عمرُ بنُ الخطابِ ﷺ، أكثرُ الناسِ خصماً يومَ القيامةِ ثلاثةٌ: إمامٌ غيرُ عادلٍ، وكاتبٌ عامةٍ، والعريفُ الذي يصانعُ الكاتبَ فيأكل هذا وهذا، ويضيع الأسماء في ديوان المسلمين.

وقال ابن مهران: إن الرجل ليقرأ القرآن في الصلاة ويلعن نفسه، قيل: وكيف ذلك؟ قال: يقرأ: ألا لعنة الله على الظالمين، وهو ظالم.

وقال عمر: ويلٌ لديَّان من في الأرض، من ديان مَنْ في السماء، إلا من أمر بالعدل وقضى بالحق، ولم يقدر على الهوى، ولا على قربه، لا على رَغَبٍ، ولا على رَهَبٍ، وجعلَ كتابَ الله مرآةً بين عينيه.

وقال أبو العتاهية: قرأتُ في بعضِ الكتبِ: أنَّ الله قال: «أيها الملكُ المبتلي المسلَّط الجبار، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردها ولو كانت من كافر».

(1) البقرة: الآية (270).

قال الله تعالى لموسى صلوات الله عليه وسلامه: «إني بمرصد للظالم حتى أدينَ منه للمظلوم».

وقال أبو بكر عيَّاش: مرَّ عمر بن عبدالعزيز براهب، فناداه وأشرف عليه فقال: أنت عمر بن عبدالعزيز، ملك الأرض، فاعرض حكمك على حكمه فانظر أي رجل أنت حينئذيا عمرُ، فبكى عمر بكاء شديد.

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يُمهِل للظالم فإذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[1].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكعب الأحبار: يا كعب خَوِّفنا، فقال كعب: يا أمير المؤمنين: إني أجد في كتاب الله تعالى المنزَّل: ويلٌ لسلطان الأرض من سلطان السماء، وكان يقال: احذروا الدعاء فإنه مجانيق الضعفاء، ولا تغتروا بالعزِّ والملك فإن فوقكم رب السماء.

وقال ابن عَبّاس في قول الله: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾[2] قال: حجرٌ في السماء بحَذوِ الظالم ينتظر متى يؤمر أن يقع.

وقالَ رسول الله ﷺ: «إذا لم يحكُم الأئمة بكتاب الله جعل الله بأسهم بينهم».

وقال الله تعالى لعيسى بن مريم: أين يهرب الظالمون، ومصيرهم إلي؟ كيف يصنعون إذا أخرجتُ كتاباً ينطق عليهم بالحقِّ، وأبدانهم تشهد عليهم بأوزارهم.

وقالَ رسول الله ﷺ: «أيّما راعٍ اُسْتُرْعِيَ رعيةً فلم يحفظ بالأمانة، والعدل، والنصيحة ضاقتْ عنه رحمةُ الله التي وسعت كل شيء».

(1) هود: الآية (102).

(2) هود: الآية (83).

وقال الشاعر:

لَعَمْرُ اللهِ إنَّ الظُّلْمَ شؤمٌ

وما زالَ المسيءُ هو الظلومُ

إلى دَيَّانِ يومِ الدينِ نَمْضي

وعندَ اللهِ تجتمعُ الخصومُ

الحكاية

حكي أنه لما قَعَدَ (أنوشروان) في المملكةِ كتبَ إليه الوزيرُ (يونان) فقال: اعلم أيها الملك: أن أمور الملك على ثلاثة أشياء: إما أنْ ينصف رعيته، ولا ينتصفَ منهم فذلك فضل، وهذه الدرجة العليا، أو يُنصِفُ ويَنتَصِف فذلك عدل، وهذه الدرجة الوسطى، أو يَنْتَصِفُ ولا يُنْصِفُ، وهذه درجة الجَور وهي السفلى، فانظر أيها الملك إلى هذه الثلاثة واختر أيها أردت، وأنا أعلم أن الملك يختار الأولى، إذ هي به أليق وأولى.

obeikandl.com

الباب السادس

في ذكر انتقام الله من الخَلْق إذا استهانوا بالحق

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾[1]. ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾[2]. وقال النبيّ ﷺ: «عُمَّالُكم أعمالُكم، كما تكونونَ يُوَلَّى عليكم».

وقال النبيّ ﷺ: «يقولُ الله عزَّ وجلَّ: أنا الملكُ الدَّيَّان، قلوب الملوكِ بيدي، فأيُّ قومٍ أطاعوني جعلتُ قلوبَ الملوكِ عليهم رحمةً، فإذا رأيتم منهم ما تكرهون فلا تميلوا إليهم بالمعاصي، ولكن توبوا إلي أعطفْ قلوبهم عليكم بالرحمة».

وقال كعب: لكل زمان ملوك، فإذا أراد الله بقوم خيراً بعث فيهم مصلحيهم، وإذا أراد بقوم سوءاً بعث فيهم مترفيهم. قال: ولما نظر (دانيال) إلى صنيع (بختنصر) بكى، وقال: اللهم بما كسبتْ أيدينا وبالعار الذي أتينا سلطت علينا من لا يرحمنا ولا يعرفك، قال: فأوحى الله تعالى إليه: إذا عصاني من يعرفني سلَّطْتُ عليه من لا يعرفني.

وقالَ رسول الله ﷺ: إذا أراد الله أنْ يخيفَ عبدَه سَلَّط عليه مَن لا يرحَمُه، وقال ابن عبدالعزيز: الحَجَّاجُ بلاءٌ وافقَ الخَطيئة.

---

(1) الزخرف: الآية (55).

(2) الأنعام: الآية (129).

وقال جريرُ بن عبد الله: ما مِن قومٍ يُعْمَلُ فيهم بالمعاصي هم أعز وأكبر ممن يعملها ولا يغيرونها إلا عَمَّهم الله تعالى بعقابه.

وقال مالك بن دينار: سمعتُ الحجاجَ في خطبته يقول: إنكم كلما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم مِن سلطانِه جَوْراً، وشوكاً وعقوبةً.

وقال مجاهد: يقول الله: بعزَّةِ مُلْكي وموضع كُرْسِيِّي مِن عرشي، لتأمُرُنَّ بالمعروف: ولَتَنْهَونَّ عن المنكر، أولأؤمِرَنَّ عليكم ملكاً صَعْباً لا يرحَمُ صغيرَكم، ولا يُكرم كبيرَكم، ثمَّ لتَدعُونَّ عليه، فلا يُستَجَابُ لكم.

وقيل: تذاكروا المهديَّ عند ابن سيرين فقال: لا تنظروا خروجه، فإنَّه لا يخرجُ حتى يُقْتَلَ مِن كُلِّ تسعةٍ سبعةٌ.

وقال قتادة: ناجى موسى ربَّه، فقال: إلهي ما علامة رضاكَ مِن سَخَطِكَ، قال: إذا استعملتُ عليكم خياركم، فهو علامةُ رضايَ عنكم، وإذا استعملتُ عليكم أشراركُم، فهو علامة سخطي عليكم.

وقالَ رسولُ الله ﷺ: إذا استقامَ العبادَ عطَفَ اللهُ بقلوب ملوكهم عليهم، فعَلَيكُم أنفسَكُم لا يَضُرُّكم مَن ضلَّ إذا اهتديتُم، قال: وأوحى الله تعالى إلى يُوشع بن نون: إني مهلكٌ مِن قومك أربعين ألفاً من خيارهم، وستين ألفاً مِن شرارهم، قال: يا ربِّ هؤلاءِ الأشرارُ فما بالُ الأخيارِ؟ قال: إنهم لم يَغضَبوا لِغضبِي ووَاكلوهم وشاربوهم.

وقال (بختنصر) لدانيال: ما الذي سلَّطني على قومِكَ؟ قال: عظيم خطيئتِكَ، وظُلْمُ قومي أنْفُسَهُم.

الحكاية

وكتب رجل إلى بعض الحكماء كتاباً يشكو جَوْرَ السلطان ونَكْبَتَهُ، فكتب إليه أما بعد: فإنه مَنْ عمل بمعصية الله لا ينبغي له أن يشكو عقوبته، ومَنْ تَعَرَّض لسخط الله فليس له أن يَتَأَبَّى نقمة الله.

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب السابع

في ذِكْرِ السُّؤددِ وسِيَرِ الرئاسةِ

وقال الله: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾[1] إلى آخر الآية.

وقالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ بذلَ معروفَه وكفَّ أذاه فذلك السيدُ».

وقال ابن عَبّاس: تفقّهوا قبل أَنْ تسودوا فإنّ الفقيهَ السَّيد ينجو، وينجو مَنْ معه، وإنّ الجاهلَ السيد يَهْلكُ، ويهلِكُ مَنْ معه.

وقال أكثم: سيدُ القومِ أسواهم.

وقال الهيثمُ بنُ عدي: قيل لعُرابةَ الأوسيِّ: «بمَ سُدتَ قومَك؟ قال: بأربع خصال؛ بالتخادعِ لهم في مالي، والذلِ في عِرضي، ولم أَحْقِرْ صغيرَهم، ولا حسدتُ كبيرَهم».

وقال علي بن عبدالله بن عباس ﷺ: «سادة الناسِ في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء».

---

(1) المائدة: الآية (12).

وقال سُويدُ بنُ عُقلةَ: «السؤددُ هو أن تنصفَ من لا ينصفُكَ، إذا كنتَ أقدرَ منه، فإنّ مال قلبُك إلى حبِّ الشكر، وطلب الانتصار، عدِمتَ نيلَ السؤددِ».

وقال أبو عمرو بن العلاء: «كانَ أهلُ الجاهليةِ لا يسوِّدون إلا من تكاملتْ فيه ستُّ خصالٍ، وتمامُهن في الإسلام: السخاوةُ، والنجدةُ، والصبرُ، والحِلمُ، والبيانُ، والتواضع، وتمامُهن في الإسلام: التقوى».

وقال مَسْلَمَةُ بن كُهيلٍ: «مرَّ عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ، على النبيِّ ﷺ، وعنده عائشةُ رضي الله عنها، فقال: يا عائشةُ، إذا سرّكِ أن تنظري إلى سيِّدِ العربِ، فانظري إلى علي بن أبي طالب رضوان الله عليه فقالت: يا رسول الله ألستَ سيدَ العربِ؟ قال: أنا إمام المسلمين، وسيد المتقين».

وقيل لقريش: بم ساد العباسُ بنُ عبدِالمطلبِ؟ قال: كان يروح بجفنته على فقراءِ بني عبد مناف، ودِرَّتِهِ على سفهائهم.

وقال (أردشير) ملكُ فارس: أشدُّ الأشياءِ أن يصيرَ الرأسُ ذَنَباً، والذَّنَبُ رأساً، والكريمُ مضروراً، واللئيم فَرِحاً».

وقال ذو النونِ المصري: وجِدَتْ صخرةٌ بمكةَ مكتوبٌ عليها:

وماسادَمَنْ لم يَعْفُ عن ذنبِ صاحبٍ

وإنْ كان في إحرامِهِ يتعمده

وقيل لقيسِ بنِ عاصمٍ: بم سُدتَ؟ قال: «ببذلِ النَّدى، وترك المراء، وترك الأذى، ونصر المولى».

وقال خالد بن عبد الله: السيدُ مَنْ سوَّده قومه، والشريفُ مَنْ له مَقْدمٌ في نَسَبِه، والفقيهُ مَنْ عظَّمتْه العامةُ.

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل: مَنْ سيِّدُ قومِك؟ قال: أنا، قال: كذبتَ! لو كنتَ كذلك ما قلتَه.

وقيل للأحنفِ: بمَ سُدتَ قومك؟ قال: بما لا أُضِيعُ ما وَلِيتُ، ولا أَتكلَّفُ ما كُفيتُ.

وقال هشامٌ الكلبيُّ: كان سالمُ بنُ نوفلٍ سيدَ بني كِنانةَ، فجرحَ رجلٌ ابنَه، فأُتي به، فقال له: ما أمَّنك من انتقامي؟ قال: فلم سودناك إلا أن تكظمَ الغيظَ، وتعفوَ عن الجاني، وتحمل المكروهَ؟ قال: فخَلَّى عنه، وفيه يقولُ الشاعرُ:

يُسوِّدُ أقوامٌ وليسوا بسادةٍ
بل السيدُ المعروفُ سَلْمُ بنُ نوفلِ

وقيل لمحمدِ بنِ أبي بكرٍ: كيف كان مصعب بن الزبير؟ فقال: كان والله أنيساً، رئيساً، نفيساً.

قال: وكانت العرب تُسوِّدُ على أشياءَ، أما مضرُ فتسوِّد مَنْ كان أدهى في الرأي، وأما ربيعةُ فتسوّد من أطعمَ الطعامَ، وأما قُثم فتُسَوِّد من كان ذا حسب.

وقال: قدم أعرابيٌّ البصرةَ، فقال: من سيد هذا المِصْر؟ قيل الحسنُ البصريُّ، قال: بمَ سادَ؟ قالوا: استغنى عما في أيديهم من دنياهم، واحتاجوا إلى ما في يدهِ من أمرِ دينهِ، قال: بَخٍ بَخٍ؛ هذا السيد».

الحكاية

لما وَلِيَ زيادُ ابن أبيه، صَعَدَ المنبرَ، فحمِدَ اللَّهَ، وأثنى عليه، ثم قال: أيُّها الناسُ، إني قد رأيتُ حالاتٍ، نبذتُ إليكم فيهن بالنصيحة؛ إعظامُ ذوي الشرف، وإجلالُ ذوي العلم، وتوقيرُ ذوي الإيثار، وإني أعاهدُ اللَّهَ لا يأتيني شريفٌ بوضيعٍ لم يعرفْ له شرفه إلا عاقبته، ولا يأتيني كَهْلٌ بحَدَثٍ لم يعرف له حق سنه إلا عاقبته، ولا يأتيني عالمٌ بجاهلٍ لاحاهُ في علمه ليهجنه إلا عاقبته، وإنما الناس بعظمائهم، وعلمائهم، وذوي أسنانهم ثم تمثّل:

تُهدى الأمورُ بأهلِ الرأيِ إنْ صَلُحتْ
فإن تَوَلتْ فبالأشرارِ تنقادُ
لا يَصْلُحُ الناسُ فوضى لا سَرَاةَ لهم
ولا سراةَ إذا جهالُهُم سادوا
إذا تَوَلى سَرَاةُ القومِ أمرَهم
نما على ذاك أمرُ القومِ وازدادوا

الباب الثامن

في ذكر السياسة، وتحصين السيادة

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ: «من استُرعِي رعيةً لم يحطّها بالنصيحة فقد حرَّم الله عليه ريحَ الجنةِ، وريحُها يوجد من مسيرة مئة عام».

قال: وكان (الإسكندر) قَسَمَ نهاره أربعةَ أقسامٍ؛ القِسمُ الأول للفقهاءِ والحكام، والقسم الثاني لأصحابِ الحربِ والحيلِ والسلاحِ، والقسم الثالث لأصحابِ الحكمةِ، وسائر أصنافها، والرابع لأصحابِ الزهدِ والعبادةِ والفقهِ والقراءة.

وقال الوليدُ بنُ عبدِالملكِ لأبيه يا أبتِ: ما أفضلُ السياسةِ؟ قال: هيبةُ الخاصة مع صدقِ مَوَدَّتها، وانقيادُ قلوبِ العامةِ بالإنصافِ لها، واحتمال هفواتِ الصنائعِ، فإن شُكرَها أقربُ الأيادي إلينا.

وقال (أنوشروان): الناسُ ثلاثُ طبقاتٍ تسوسهم بثلاثِ سياساتٍ؛ طبقةٌ من خاصةِ الأبرارِ، تسوسها بالعطف واللين والإحسان، وطبقةٌ من خاصة الأشرارِ تسوسها بالغلظةِ والشدةِ والعنفِ، وطبقةٌ هي العامةُ تسوسها بالشدّة واللين لئلا تُخرجهم الشدة، ولا يُبطرهم اللين.

---

(1) التحريم: الآية (6).

وقال (أَرْدَشير)؟ لابْنه: يا بني إنَّ المُلْك والدينَ أخوان، لا غِنى بأحدهما عن صاحِبه، ولا قِوام له إلا بهما الدينُ أسٌّ، والملك حارسٌ، فمَنْ لم يكنْ له أسٌّ فمهدومٌ، ومنْ لم يكن له حارسٌ فضائعٌ، فاجعلْ مرتبتَك يا بنيَّ مع أهلِ المراتبِ، وعطيتَك لأهلِ الجهادِ، وبِشْرَكَ لأهلِ الدينِ، وبِرَّك لمن يُغْنيه ما أغناك من أهل العقل.

وقال يزيدُ بنُ حبيب: سألَ بعضُ ملوكِ الفرسِ (موبذان): أي شيءٍ يعزُّ به السلطان؟ قال: تودُّدُ الخاصة، والعدل على العامة، قال: فما صلاح الملك؟ قال: الرفق بالرعية، وأخذ الحق منهم على غير مشقة، وأداؤه إليهم عند أوانه، وأمن السبيل، وإنصاف المظلوم من الظالم.

قال: وسئل بعض الحكماء: أي الملوك أحزم؟ قال مَن ملَكَ جِدّه هزلَه، وقَهَر لُبُّه هواه، وأعرب عن ضميره فعله، ولم يختدعه رضاه عن خطئه، ولا غضَبُه عن كيده.

قال: وكتبَ بعضُ الحكماءِ إلى (الإسكندر): امْلُكِ الرعيةَ بالإحسانِ إليها تظفرْ بالمحبةِ منها، فإنَّ طلبَكَ مُلْكَكَ بإحسانكَ هو أدومُ بقاءً منه باعتسافك.

وقال عبد الملك بن مروان، حين وجَّهَ أخاه عبد العزيز إلى مصر: اعرف كاتبك وحاجبك وجليسك، فإن الغائبَ يخبره عنك كاتبُك، والمتوسم لك يخبره عنك حاجبُك، والداخل عليك يخبره جليسك.

وقال عباس بن محمد للرشيد: يا أميرَ المؤمنين، إنما هي دراهمُك وسيفُك، فازْرع بهذا مَنْ شَكرَكَ، واحصدْ بهذا مَنْ كفَرك.

قال حسينٌ: إن البذلَ رضيعُ العدلِ، قال: فكيف الشفاعةُ عنده؟ قال: ليس فيها مطمع.

قال حسين: وقيل لعبد الله بن سالم: إن فلاناً غيّرته الولاية، فقال: إذا ولي الرجل ولايةً هي أكبرُ منه تَغَيَّر لها، وإن وَلي ولايةً يرى أنه أكبرُ منها لم يتغيرْ.

الحكاية

كتبَ الوليدُ إلى الحجاجِ بنِ يوسفٍ يأمرُه أن يكتبَ إليه سيرَته، فكتب إليه: إني أيقظتُ رَأيي وأَنَمتُ هوايَ، فأدخلتُ السيدَ المطاعَ في قومه، ووليتُ الحربَ الحازِمَ في أمره، وقلَّدتُ الخراجَ الموفَّرَ لأمانته، وقسَّمْت لكل حظٍ من نفسهِ قَسْماً يعطيه حظاً من نظري، ولطيف عنايتي، وصرفت السيف إلى النطق المسيء، فخاف المريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظِّه من الثواب، وأنشد أبو العتاهية في الرشيد:

أميرَ المؤمنين ابنُكَ خيرُ ابنٍ
عليه مِنَ التقَى فيه لباسُ
يُسَاسُ من السماءِ بكلِّ بِرٍّ
فأنتَ به تَسُوسُ كما تُساسُ
كأن الحُسْن رَكَّبَ فيه روحاً
له جسدٌ وأنتَ عليه راسُ

obeikandl.com

الباب التاسع

في آفة الرياسة، وشدة الحراسة

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[1].

وقال النبيّ ﷺ: «كفى بالمرءِ المسلمِ، أن يُشار إليه بالأصابِعِ إلا مَنْ عَصَمَه الله في دينه، ودنياه».

وقال قتادَة: لولا حبُّ الرياسة لمشى الناس على الماء، قال المسيح عليه السلام: «إذا اتخذكم الناسُ رؤوساً فكونوا أذناباً».

وقال أبو الأحوص: «الجنةُ محفوفةٌ بطلبِ الخمولِ، والنارُ مفروشةٌ بطلبِ الرياسة».

وقال الثوريُّ: «من طلبَ الرياسَة في العلمِ فإنه علم كثير، قال: وكان عمرُ بن عبد العزيز لا يخرجُ من منزله إلا وقتَ الصلاةِ، وكان لا يتطوعُ في مجلسهِ، فسئلَ عن تركه ذلك؟ قال: أكره أن أنظرَ إلى مَنْ ينتظرني لحاجة، فيدخلني فيه حبُّ الرياسة.

وقال أبو حنيفة ﷺ: «من طلب الرياسة في غيرِ حينه لم يزلْ في ذلٍّ ما بقي».

وقال الفضيل بن عياض: «لا يحبُّ الرياسةَ أحدٌ إلا طلبَ عيوبَ الناسِ، وذكر مساوئَهم، وكره أن يذكروا عنده بخير».

---

(1) العلق: الآيتان (6 - 7).

وقال يحيى بن معاذ: «من طلبَ الرياسةَ في الفتنةِ وقعَ في الحفرة».

وقال أيضاً: «حب الرياسةِ سيفُ إبليس في بني آدم، قطعَ به العبودية، إذا ضربَها، ومَنْ وضعَ تاجَ الرياسةِ على رأسهِ خُذِلَ مع المخذولين، وحبُّ الرياسةِ غصنٌ الربوبيةِ من تعلَّقَ به هَلَكَ مع الهالكين، وحبُّ الرياسةِ مَيْدانٌ في بني آدم، ينزل فيه جنودهُ، ومن شرِبَ بكأسِ حبِّ الرياسةِ فقد خرجَ من إخلاصِ العبادةِ، وحبُّ الرياسةِ نارٌ في نفسِ بني آدمَ، إذا توقَّد في قلوبِهم أحرقتْ صفاؤه سرائرَهُم، وحبُّ الرياسة في الزُّهاد يأكلُ زهدَهم، وفي العلماءِ يأكلُ عِلْمَهم، وفي العُبَّادِ يأكل عبادتهم».

وقال شقيق:[1] الفتنةُ عند الناسِ ضَرْبُ السيوف، وإنما السيوفُ تَهيجُ في الفتنة، فمن كان فيه ثلاثٌ فهو رأس كل فتنة، ومن لم يكن فيه عُصِم من كلِّ فتنةٍ الطمعِ والإعجابِ وحبُّ الرياسةِ.

وقال عكرمة: «حبُّ ثناءِ الناس يُعْمي ويُصِم، ويَذَرُ الديَّارَ بَلاقِعَ، قالَ: ومكتوبٌ في الحكمة: «أربعةٌ أُكِنَّتْ في أربعةٍ: السلامةُ في السكوتِ، والعاقبةُ في تركِ الرياسةِ، والشرفُ في التقوى، والمحبةُ في تركِ الفضولِ».

وقال أبو يحيى الورَّاق: ما الوقوعُ في البلية إلا من دوام العافيةِ، ولو كان بِفِرْعَوْنَ جُوعُ ثلاثةٍ، أو حُمَّى ليلةٍ، أو شَقِيقةُ ساعةٍ، لم يَقُلْ: «أنا ربُّكمُ الأعلى».

وقال يحيى بن معاذ: مَنْ شَمَّ الرياسةَ يَتْرُكُ الرأسَ ولا يترك الرياسة، ومن ابتلي في الرياسةِ وقع في الدِّياسة.

(1) يعني: البلخي، الصوفي المشهور.

وقال ابن عيينة: من طلبَ الرياسةَ فاتته، ومن لم يطلبها أتته.

وقال أبو الحسن المدائني: كانَ يُقالُ من طلبَ الرياسةَ صبرَ على مضضِ السياسةِ.

الحكاية

قال كعب: تَنَسَّكَ ابنُ ملكٍ في العصر الأول، فلما مات الملكُ انعطفت إليه الرعية، وقالوا له: مات ملكُنا، ولا بدَّ لك من أن تَلينا.

قال: يا قوم؛ قد صحَّ عندي أن الموتَ كلَّ حينٍ أقربُ إلي، إنْ أنتم عزلتم عني الموتَ، وباعدتم عني زوالَ العزِّ، وليتكم، وإلا فاذهبوا عني، فإني لا أهوى مُلكاً يزول، ولا نعيماً يَبِيدُ، ولا حياة يَعْقُبُها الموت.

وقال الشاعر:

ولم أرَ هالكاً في الناس إلا

وبابُ هلاكِه طلبُ الرياسة

obeikandl.com

الباب العاشر

ما قيلَ في طاعة الأمراء والصبر على البلاء

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ لأبي ذر: «يا أبا ذر، كيف تصنعُ إذا أُخرِجتَ من المدينة؟ قال: إلى السَّعةِ والدَّعةِ، أكونُ حمامةً من حماماتِ مكةَ، قال: فكيف تصنعُ إذا أخرجتَ من مكةَ؟ قال: إلى السعةِ والدعةِ إلى الشام، والأرض المقدسة؟ قال: فكيف تصنعُ إذا أخرجتَ من الشام؟ قال: والذي بعثكَ بالحقِّ أضعُ سيفي على عاتِقي، قال: وخيرٌ من ذلك؛ تسمعُ وتطيعُ وإن كان عليك عبدٌ حبشيٌّ مجدَّعاً، إن ضربَك فاصبرْ، وإن ظلمَك فاصبر، وإن أمَرَكَ بأمر ينقصُ دينكَ، فَقُل: سَمْعاً وطاعة، ودَمِي دون ديني.

وقال حذيفة: ما مشى قومٌ إلى السلطانِ ليذلوه إلا أذلَهم الله، قبلَ أن يموتَ.

وقال مكي بن إبراهيم: قيل لابن عَونٍ: ألا تدعو على بلال بن أبي بردة؟ فقال: إنهما كلمتان؛ إن خرج من صحيفتي: لا إله إلا الله، أحبّ إلي من أن يخرجَ لعنةُ الله.

وقال علي بن أبي طالب، وهو يعاتبُ أصحابَه: يا أشباه الرجال ولا رجال، ويا طَغَامَ الناسِ، يا أضغاث أحلام، أما والله، لقد ملأتم جوفي

(1) النساء: الآية (59).

غيظاً ودماً، حتى قالت قريشٌ: إن عليَ بنَ أبي طالبٍ رجلٌ شجاعٌ، ولكن لا عِلمَ له بالحرب، لله درُّ أبيه، وهل فيهم من هو أشدّ لها مراساً مني، فوالله لقد نهضتُ فيها وما بلغتُ العشرين، وأنا اليومَ قد نَيَّفتُ على الستين، ولكن لا رأيَ لمن لا يطاعُ.

وقالَ رسول الله ﷺ: «سيكونُ عليكم أمراءُ لا يهدون [بهدي]، ولا يتبعون سنتي، قالوا: أفلا نقاتلهم يا رسول الله؟ قال: لا، ما صلّوا».

وقال زيد بن الصمة لبنيه: إني أنهاكم عن محاربة الملوك، فإنها كسيل الليل، لا يدرَي متى يأتيك؟ ولا من أين يأتيك!

وأوصى (بُزرجمهر) يوماً خاصةً له، فقال: أطِعْ ولي نعمتِك في ما أمرك ونهاكَ، كطاعتِك لمن أنشأك ورزقك، فإن طاعةَ مَنْ ملّكَه الله على خلقِه مقرونةٌ بطاعةِ الله، وطاعةُ الله توجبُ الرحمةَ والمغفرةَ، وطاعةُ الملِكِ توجبُ الإفادةَ، وإقالةَ العثرة، وتحصينَ النَّسَمَةَ، قال: فسمعَ الملكُ مقالتَه فقال: لا يزالُ هذا المُلكُ محروساً ما دام فيه مثلُه.

وقالَ أنسٌ سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول: «إن استعملَ عليكم الوالي عبداً حبشياً من عبيدِه، أو من عبيد غيره، فاستمعوا له وأطيعوا له، وصلّوا خلْفَه».

وقال لقمانُ لابنه: ثلاثةٌ ينبغي أن تُداريهم؛ الملكُ المسلّطُ، والمريضُ المدنفُ، والمرأةُ الجاهلةُ.

وقال أيضاً: خمسةٌ لا يعاديهم أحدٌ إلا ندمَ؛ الملكُ الفشومُ، والجاهلُ، والصديق المرائي، والأرضُ الخبيثةُ، والمرأة السوء.

وقال بعض ملوك العجم، وهو يوصي أهله، وأهلَ مملكتِه: يا قومُ احفظوا عني ثلاثاً؛ الزموا الطاعةَ تُعْصَمُوا، والزموا النصيحةَ تَسْلَمُوا، والزموا

التعـاونَ تَغْلِبُوا، وإنما إصـلاحُ العباد بالعمارةِ، وترهيبُ العـدوِّ بالمكاثرةِ، وإحراز البيضةِ بالغَزْوِ، واعتضادُ الغزوِ بالجنود، واصطناعُ الجنودِ بالمالِ، واكتسـابُ المالِ بالعمارةِ، والعمارة بالعدل، فمن قَلَّ مالُه قلَّتْ أعوانُه، ومَنْ قَلَّتْ أعوانُه كَثُرَ عدوُّه.

وقالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ خرجَ من الطاعةِ ماتَ موتةَ الجاهليةِ».

الحكاية

قـال الزُّهْـري كتبَ عمـرُ بـنُ عبدِالعزيزِ إلى بعضِ العلمـاءِ: أما بعدُ فـإن اللَّهَ تعـالى جعلَ الرعاةَ مؤدِبـين، فنسألُ اللَّـهَ أن يجعلنا منهم بمنِّه أجمعين.

obeikandl.com

الباب الحادي عشر

ما قيل إنه لا يطاع المخلوق في معصية الخالق

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ: «لا طاعةَ للمخلوقِ في معصيةِ الخالقِ».

وقال أبو حازم: إن ثلاثةَ نفرٍ جاؤوا يطلبون أبا مسلم الخَوْلانيَّ؛ رجلٌ من أهلِ العراق، والآخرُ من أهلِ الحجازِ، والآخرُ من أهلِ الشامِ، فلما رأوه ازْدَرَوْه، فقال أبو مسلم: أما أنتَ يا أخا الشامِ؛ ما رأيتُ قوماً أطوعَ للمخلوقِ وأعصى للخالقِ منكم، وأما أنتَ يا أخا العراقِ؛ فما رأيتُ قوماً أطلبَ للعلم، وأضيع للعمل منكم، وأما أنتَ يا أخا الحجاز، فما رأيتُ قوماً أطلبَ للفتنةِ، وأضعفَ فيها منكم».

وقال ابن مسعود: من أتاك بحقٍّ فاقبله، وإن كان مبغضاً بعيداً، ومن أتاك بباطل فردَّه، وإن كان حبيباً قريباً.

وقالَ رسول الله ﷺ عليكم بالسمعِ والطاعةِ، إلا أن يأمرَ بمعصيةِ اللهِ فلا سمعَ ولا طاعةَ.

وقال القاسم بن محمد؛ والي البصرة، لمالكِ بنِ دينارٍ: أتدري ما الذي يُجَرِّئُك علينا ويَجْنُبُنا عنكَ؟ قلتُ طَمَعُكَ فينا، وتركُ تحاسدِكَ لما في أيدينا.

---

(1) هود: الآية (113).

قال: وكان عبد الله بن فَروة أميراً على المدينة، فبعثَ إلى أبي حازم أن يأتيه، فلم يأتِه، وقال: إن الخيرَ يؤتى، فإن كان لكَ حاجةٌ فأتني، وأما أنا فليس لي إليكَ حاجةٌ.

وقالَ رسولُ الله ﷺ: «أيّما قومٌ حضروا ظالماً يظلم، فلم يقولوا له جميعاً: ظَلَمْتَ، تبرَّأ الله منهم جميعاً». قال: ودخل سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ على طاوس بمكةَ يعودُه فما كلّمه إلا بجوابِ كلامهِ، فلما قام سليمانُ من عندِهِ قيل له: أتاكَ أميرُ المؤمنين، ولم تُنَاطِقْه إلا بجوابِ كلامهِ؟ قال: إني أحببتُ أن يعلمَ هو أنَّ في عبادِ اللهِ من يستصغرُ ما يستعظمُ هو.

قال: ولما خالطَ الزُّهريُّ السلطانَ كتبَ إليه أخٌ من إخوانه: عافانا اللهُ وإياكَ من الفتنِ، فإنك قد أصبحتَ بحالٍ ينبغي لمن عرفكَ أن يدعوَ لكَ، ويرحمَكَ، أصبحتَ شيخاً كبيراً، قد أثقلتْكَ نعمُ الله، لما فهّمك في كتابه، وعلّمكَ من سُنةِ نبيه، وليس كذلك أَخَذَ اللهُ الميثاقِ، وقال: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[1]، واعلمْ أنَ أيسرَ ما ارتكبتَ وأخفَّ ما احتملتَ أنكَ آنستَ وحشةَ الظالم، وسهّلتَ سبيلَ الغيِّ بدنوِّك ممَنْ لا يرُدُّ باطلاً، ويقبلُ حقاً حين أدناك، اتخذوكَ قُطْباً تدورُ بكَ رَحى أباطِيلِهم، واتخذوكَ جسراً يعبرون عليكَ إلى بلائهم، واتخذوكَ سُلَّماً يرتقون فيكَ لضلالتهم، يُدخِلُون بكَ الشكَّ على العلماء، ويقودون بك قلوبَ الجهالِ، فما أيسر ما عَمَروا لكَ في جنبِ ما خرَّبوا عليك! وما أكثر ما أخذوا منكَ فيما أفسدوا عليك من دينك! فما يؤمنكَ أن تكونَ ممن قالَ اللهُ فيهم: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾[2]، وإنك تُعامِلُ

(1) آل عمران: الآية (187).

(2) مريم: الآية (59).

مـن لا يجهلُ، ويحفظُ عليك مَنْ لا يغفُلُ عنكَ، داوِ دينَك، فقد دَخَلَه سُقْم، وهيـئ زادَكَ فقد حضرك سفرٌ بعيد ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾[1]، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

الحكاية

قـال وهبٌ: ما أنتـم فيما خلا إلا مثل دُخانٍ عند النـارِ، ثم جعلَ يقول: كانتِ امرأةٌ فيما مضى يقال لها: سارةُ، ولها سبعُ بنين، وهم على دينِ اللهِ وطاعتهِ، فسُعِيَ بهم إلى ملكٍ كافرٍ، فأكرَهَ أحدَهم أن يأكلَ لحمَ الخنزير، فأبـى، وقال: لا آكلُ شيئاً حرّمَ اللهُ علي، فقطع يديـه ورجليه، وقطَّعه إرباً إرباً، ثم قَرَّبَ الآخرَ، وأمره بأكل لحم الخنزيرِ، فلم يأكلْه، فأغلاه في قِدْرٍ مِـن نحاس، ثمَّ استدعـى بالثالثِ وأمره كما أمر أخاه، فقـال له: أنتَ أقلُّ وأذلُّ وأهـونُ علـى اللهِ، من أن أعصيَ اللَّهَ بطاعتِـكَ، فضحك الملكُ وأمرَ بـأن يُسلخَ جلدُ رأسِه ووجهه إلى القدم، ولم يزلْ يقتلُ كلَّ واحدٍ منهم بقتلٍ غيرِ قتلِ أخيه، حتى بقي أصغرُهم وأمُّه، فقالَ الملكُ لهما: امتثلا أمري، وإلا قتلتُكما شرَّ القتلِ، فقالت الأم: يا ولدي اصبرْ قليلاً حتى تلحقَ بإخوانِك في دارِ الكرامـةِ عندَ اللهِ، فقال: يا أماه، إني خفتُ عليكِ لـمّا نظرتُ إلى أنكِ عجَـزتِ عنهـا، لا واللهِ لسـتُ آكلُ شيئاً حرمه اللهُ علـي، فرجعا إلى الملك فقالا: نحن لا نطيعك في معاصي الله، فقتل كليهما، وانقلبوا إلى رحمة الله جميعاً، مطيعين لأمره، عاصين الملكَ الظالم.

(1) إبراهيم: الآية (38).

obeikandl.com

الباب الثاني عشر

فيمن خاطر في الله في المشافهة، ولم يدفع بالمداهنة

قال الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «إذا هابت أمتي أن تقول للظالم: أنت ظالم فقد تُوُدِّعَ منهم».

وقال: ودخل عبدُالرحمن بن غنم على الحجَّاج، فقال: لا تسرف في القتل، قال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾[2]، قال له الحجاجُ: لأسقينَّ الأرضَ من دمِكَ، قال: ما في بطنها أكثر مما على ظهرها، قال: لأذيقنَّكَ العذابَ الأكبرَ، قال: لو علمتُ يا حجاجُ أنَّك تقدرُ على ذلك لعبدتُكَ من دون الله.

وتهدَّدَ عمرُ بن يزيد محمدَ بنَ واسعٍ، فقال محمد: نكالُ الآخرةِ أشدُّ من نكالِ الدنيا، والظالمُ أحقُّ بالضربِ من المظلومِ.

وقال الحجاجُ لجامعٍ المحازمي: لقد هممتُ أنْ أقلعَ لسانَك وأضربَ به وجهَكَ، فقال جامع: إنْ صدقْتَنا أغضبناك وإن كذبنا أغضبنا الله، فغضَبُ الأميرِ أهونُ مِنْ غضبِ اللهِ.

---

(1) الحجر: (94).

(2) الإسراء: (33).

قال وتكلَّم شقيقٌ ببلخ في العلماء والأمراء، حتى رُفع خبره إلى الأمير، فدعاه والعلماءُ مجتمعون حولَه، فقال له الأمير: ما حِرْفَتُك؟ قال خادمٌ، فقال خادمُ مَنْ؟ قال: خادمُ مُقلِّبِ القلوب، قال: مالكَ والوقيعةَ في العلماء الأمراء؟ قال إن النبيّ ﷺ قال: «العلماءُ ورثةُ الأنبياءِ»، و«السلطانُ ظلُّ اللهِ في الأرضِ» فالوارثُ يكون بالاقتداءِ، والظلُّ ما يُرَوِّحُ النفسَ إذا أَوَتْ إليه، فلو دخَلَ علينا رسول الله ﷺ، أيُّنا كان يستحي منه أنَا، أو أنتَ، أو هؤلاء؟ قال: فاذهبْ فإني أشهدُ أنك خَادمُ مقلِّبِ القلوبِ.

وقال طاوس اليماني: بينا أنا أطوفُ بمكةَ والحَجَّاج أمامي، إذ بَصُرَ برجل كاليماني، فقال لبعض غلمانه: احفظ هذا، فإذا قَضى طوافه فأتني به، فقال لهُ: أجِبِ الأميرَ، حتى وقف بين يديه، وقام إليه رجل آخر، حتى صار بين اثنين، فقال له الحجاج: ممَّن الرجلُ؟ فقالَ من أهلِ اليمنِ، قال: كيف خَلَّفتَ أخي محمدَ بنَ يوسفَ؟ قال: طويلاً، صحيحاً، عريضاً، جسيماً، سالماً، شجاعاً، قال: لم أسألك عن هذا، إنما سألتك عن رَسْمِه وسِيرته، قال: تركته أظلمَ الظالمين، وأفسقَ الفاسقين، وشرَّ الأشرار، قال: فأطرقَ الحجاجُ ساعةً، ثم رفع رأسه، فقال: أما علمتَ أنه أخي؟ فقال: أما علمتَ أنَّ الله ربي، أترى أخاك بكَ أعزَّ مني بالله؟ قال فبكى الحجاجُ بكاءً شديداً، وانتزع الرجلُ يَدَه من أيدي الرجلين، فذهبَ، فما تبعه أحد، ولا قيل له شيءٌ، قال طاوس: فما سُررت بشيءٍ قطُّ مثل سروري بذلك.

قال: ودخل حاتمٌ على أميرِ المؤمنين؛ أبي جعفر فقيل له: هذا مُذَكِّر خراسان، وهذا رجلٌ زاهد، قال حاتم: يا أميرَ المؤمنين، لو بقيتَ عطشاناً لم تجِدِ الماءَ إلا بإخراجِ نصفِ مُلكِك، ما كنت تفعل؟ قال: أبذلُه، قال: لو حُبس البول بعدما شربت، ولا تجدُ السبيلَ إلا بإخراجِ النصفِ الباقي،

كيف تصنع؟ قال: أبذله، قال حاتم: لا يغُرَّنك مُلْكٌ؛ ثمنُهُ قطرةُ بولٍ؛ ولا شربة ماء كفاكَ ثمنُها مقدارها.

الحكاية

خرجَ عبدُ اللهِ بن منيرٍ حاجاً إلى مكةَ، في السنةِ التي خرج هارونُ الرشيدُ يطوفُ على بَغْلةٍ، وبين يديه طَرَّادٌ، فقال عبدُ اللهِ بن منيرٍ: ما هذا؟ لَمَ تطْرِدُ خلقَ اللهِ من بيتِ اللهِ؟ وهل رأيتَ أحداً يطوفُ على البغلةِ؟ فقالَ: أرسلَ اللهُ خيراً منكَ إلى شرٍّ مني، وهو موسى صلوات الله عليه، أرسله إلى فرعونَ، وقال لهُ ولأخيه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[1] ثمَّ قالَ: خذوه، فلمّا خرجَ مِن الطواف أرادَ قتله، فقيل له: لا ينبغي لكَ قتلُ رجلٍ صالح، فقال هارون: اذهبوا به إلى الإسطبل، حتى يحفظَ بغلتي المجنونة، وكانت تلك بغلة لا تُطيع أحداً، وكانت جموحاً عضوضاً، وكان غرضه أن تَقْتُلَه، فلما ذهبوا به صارتِ البغلةُ له مطيعةً، تمشي خلفه من غير مقود، فأخبر هارونُ بذلك، فقال أدخلوه بيتاً، وسدُّوا بابه، ليموت جوعاً، ففعل به، فلمّا كانَ منَ الغدِ دخلَ غلمانُ هارونَ البستانَ، فرأوه جالساً مع رجل يُحدِّث، فأخبرَ هارونُ ذلك، قال: فانظروا، فنظروا فإذا هو قد ذهب الذي كان معه، فأتي به إليه، فقال له هارون: من أخرجك من حبسي؟ قال: الذي حبسني فيه!! قال: من الذي كان معك؟ قال: أخي الخضرُ عليه السلام! قال: فأمر هارون ليؤتى به السوقَ، وأمر منادياً حتى يطوف به في الأسواق ينادي: أن الرشيد أرادَ أن يذلّ من أعزه الله، فلم يستطعْ، قال: واعلموا أن من أعزَّه الله لا يستطيعُ، أحدٌ أن يذله[2].

---

(1) طه: الآية (44).

(2) لو أخلاها واضع القصة من (أخي الخضر) ربما تسوغ!! وبعيد أن يكون الرشيد بالصفة التي تصورها القصة.

obeikandl.com

الباب الثالث عشر

فيما قيل فيمن باشرَ العفَّة والسلامة، وامتنعَ عن الخطر والملامة

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ: «مُروا بالمعروفِ وانهوا عن المنكرِ ما لم تخافوا أن يأتيَ عليكم بشرٌ ما تنهون عنه، فإن خِفتمْ ذلك فقد حلَّ لكم السكوتُ».

وقال عبدُاللهِ بنُ مسعودٍ: حسبُ امرئٍ إذا رأى منكراً لا يستطيعُ له رداً، ويرى أن يعلمَ اللَّهُ من قلبه أنه له كارهٌ.

وقال سفيانُ: لا يُطْلَبُ الخيرُ بالشرِّ، إذا خفتَ أنْ تلقه بأعظمَ مما تشتهي فلا تأمرْه ولا تنهَه.

وقيل لفضيل: ألا تأمرُ ألا تنهَى؟ قال: إنَّ قوماً أَمَروا، ونَهَوْا فَكَفَروا إنهم لم يصبروا على ما أُصيبوا.

وقيل للثوريّ: ألا تأمرُ بالمعروفِ وتنهَى عن المنكرِ؟ قال: إذا انبثق البحر فمن يقدر أن يُسَكِّنَه؟

وقيلَ لأُوَيسٍ القَرَنيِّ: ادخُلْ وأْمُرْ وانْهَ، قال: مَنْ يسمع باسمي وسيرتي، فقد أمرته بالمعروف، ونهيته عن المنكر.

---

(1) التوبة: الآية (71).

قال: ولما دَخَلَ أبو إسحاقَ الفَزاريُّ على هارونَ بالمصّيصَة كتَبَ إليه يوسف بن أسباط: إنكَ قد دخلتَ على هذا الرجلِ، ولم تأمرْه ولم تنهَه، وقد رأيتَ ما أظهر من الحرير والديباج؟! فكتب إليه أبو إسحاقُ: إنكَ لمْ تُنكر في الإسلامِ إلا الحريرَ والديباجَ؟ فأين الدماءُ والأموالُ والفروج؟ وأنه كان يقال: إذا خافَ العالمُ، فهو في سَعَة ما لم يُسألْ.

وقالَ رسول الله ﷺ: ليس للمؤمنِ أن يُذلَّ نفسَه، قيل يا رسول الله: كيف يذلُّ نفسه؟ قال: يتعرضُ من البلاء ما لا يقوم له.

وقيل لذي النونِ: هل مِن وراء الأمر بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ منزلةٌ هي أرفعُ منها؟ قال: نعم، يصونك اللهُ عنها، ولا يبتليك بها.

وقال ابن عَبّاس: من أنكرَ معصيةَ اللهِ بقلبهِ، فقد بَرِيءَ منها، ومن رضيها فقد شركها.

وقال الحسنُ: من أدركَ آخر الزمانِ، فليكنْ جِلْساً من أحلاسِ بيته.

وقال عُبيدةُ: صحبتُ النُّخَعِيَّ عشرَ سنين، فما سمعته يشتمُ أحداً، إلا أنه ذُكر الحجاجُ يوماً عنده، فقال ما أخبثه! لبغضه لأولياءِ الله.

وقال خالدُ بنُ محمدِ بنِ الزبيرِ: اجتمعَ وفودُ العربِ إلى معاويةَ لبيعةِ يزيدَ، فقال للأحنف: تكلمْ في شأنِ يزيدَ، فقال الأحنفُ: إني أخشى الله إن كذبتُ، وأخشاك إن صدقتُ، فقالَ معاويةُ تكلمْ، فقال الأحنف: أنتَ أعلمُ بليلِه ونهارِه، فإن كنتَ ترى أنه خيرٌ لكَ فيما بينك وبينَ الله فبايعْ، وإن كنتَ ترى غيرَ ذلك، فلا تزودْه الدنيا، وأنتَ تذهبُ إلى الآخرةِ.

وقال ابنُ مسعودٍ: سمعتُ من رسول الله ﷺ شيئاً سَرَّني، سمعتُه، يقول: «مَن رأى منكراً فلم يستطع له غيراً، فحسبه أن يعلمَ الله أنه كارهٌ له».

وقالَ رسول الله ﷺ: «إنّ الفتنة راتِعَةٌ في بلاد الله تجرُّ في خطامها، ألا فلا توقظوها بالسيف على أمتي، ألا ولا تجروها إلى أمتي، الويل لمن أخذ بخطامها، ثمَّ جرَّها إلى أمتي بسيفه، ثم الويل له، ثم الويل له».

الحكاية

حكي: أن عيسى بنَ مريمَ عليهما السلام كان يوصي للحواريين، ويقول لهم: كما تركَ الملوكُ الحكمةَ، فاتركوا لهم الدنيا.

opelkandl.com

obeikandl.com

البابُ الرابعُ عشرَ

في فضلِ مَنْ عدل في الرعيةِ، وضبطَ الأمرَ على الحقيقةِ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ: «عملُ يومٍ مِنْ إمامٍ عادلٍ أفضلُ مِنْ عملِ عابدٍ سبعين عاماً، ولا تُردُّ له دعوةٌ».

وقيل: يُقال للإمام العادل في قبره: أبشرْ فإنكَ رفيقُ محمدٍ ﷺ قال: وكانَ مِنْ عَدْلِ أميرِ المؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضوان الله عليه أنه يقسمُ رُمَّانَ السبيلِ، فلما قسمَ الرمانَ، وبقيَ واحدةٌ منها قسمَ الحباتِ بينهم على قدرِ أنصابهم.

قالَ بعضُ العلماءِ: وجدتُ في صِفةِ عمرَ بنِ عبدِالعزيزِ: أن الأرضَ تبكي عليه أربعينَ عاماً.

وقال أبو هريرة ﷺ: ثلاثٌ لا يُردُ دعاؤهم؛ الإمامُ العادلِ، والصائمُ حينَ يفطرُ، ودعوةُ المظلوم، فإنها تُرفَع فوقَ الغمامِ، وينظر الله تعالى إليها فيقولُ: وعزتي لأنصرنَّكِ، ولو بعدَ حينٍ.

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ يكونون في ظل العرشِ، يوم لا ظلَّ إلا ظلّه، إمامٌ عادلٌ، ومؤذنٌ حافظ على الأذانِ، وقارئٌ يقرأُ كلَّ يومٍ مئتَي آيةٍ.

(1) النساء: الآية (105).

وقالَ الأعمشُ سمعتُ يزيدَ بنَ أبي سفيانَ، يقولُ: دخلتُ على عمرَ بن عبدِالعزيزِ، في مرضِه الذي تُوفِّيَ فيه، فنحن نتذاكرُ عنده أصحابَ رسولِ اللّٰه ﷺ فأغفى إغفاءً فرأيناه وقد رَعَدَ رعدةً شديدةً، وعرقَ حتى بلَّ فُرُشَه، ثم بكى حتى علاه النحيبُ، ثمَّ سكتَ هنيهة، ثم ضحكَ قهقهةً، وإنَّ كلَّ ذلكَ في المنامِ، فلما انتبه سألناه عن ذلك؟ فقال: نعم إخواني؛ رأيتُ في منامي كأنَّ القيامةَ قد قامتْ، والخلقُ قد حشروا، وما رأيتم من رِعدتي كان من هَوْلِ المحشرِ، ورأيتُ الناسَ قد وقفوا وأنا فيهم بين يدي اللّٰه، وما كانَ من العرقِ فذلك من فزعِ الموقفِ، فبينا أنا كذلك، إذ نادى منادٍ: أين النبيّ الأميُّ؟ قال الأنبياء: كلنا أميون، فأينا تريدُ؟ قال: فأين النبيّ الهاشميُّ؟ فنادى رسولُ اللّٰه ﷺ، وقال: لبيك، لبيك، فحوسب حساباً يسيراً، ثم أُمِر به ذاتَ اليمينِ، ثم نادى: أين أبو بكر الصديق؟ فنظرتُ إلى شيخٍ خاضبٍ، فأجتذبَته الملائكةُ، فزَجَّتْ به في النور زجّاً، فاحتُبِس به هنيهةً، ثم أُمِر به ذاتَ اليمين، ثم نادى منادٍ: أين عمرُ بنُ الخطابِ؟ فنظرتُ إلى شيخٍ يعلوه السوادُ، فرأيت الملائكة قد اجتذبتْه، فزجّتْ به في النور زجاً، فاحتُبس هنيهةً، ثم أُمر به ذاتَ اليمين، ثم نادى منادٍ: أين عثمان بن عفان؟ فنظرتُ إلى شيخٍ طويلٍ كثيفِ اللحيةِ، فرأيت الملائكة قد اجتذبته فزجّت به في النور زجاً، ثم احتُبس به هنيهةً، ثم أُمر به ذاتَ اليمين، ثم نادى: أين علي بن أبي طالب؟ فرأيت رجلاً أصلعَ بطيناً اجتذبْته الملائكةُ فزجتْ به في النور زجاً، فحوسب حساباً يسيراً، ثم أُمِر به ذاتَ اليمين، ثم لا أدري بالخلفاءِ الذين منْ بعدِهم كانوا، فبينا كذلك، إذ نادى منادٍ: أين عمرُ بنُ عبدِالعزيز؟ فبكيتُ من ذلك بكائي ما رأيتم، فاجتذبتني الملائكةُ ثم زجّتني في النور زجاً حتى وقفت بين يدي

الله، فسألني عن الفتيل والقطمير، ومنْ أصغرَ من ذلك وأكبر، فخشيتُ على نفسي -والله- من الهَلَكَةِ، فالسَّكْتَةُ التي رأيتموها مني بين الضحك والبكاء من ذلك، ومنْ وقوفي بين يدي الله، ثم أردكتني رحمةُ ربي، فأُمِر بي نحوَ ذاتِ اليمينِ، فبينا أنا مارٌّ فدنوت من الجنة، إذا أنا بجيفةٍ ملقاةٍ بين الجنة والنار، فقلت ما هذه؟ قال لي بعضُ الملائكةِ: إنها تُكَلِّمُكَ، فكلَّمْتُها فقلت: من أنتِ؟ قال: أنا الحجاجُ بنُ يوسفَ، قدمتُ على ربٍ كريمٍ فتلني بكلِّ قِتلة، قتلتها قتلةً، فأنا ملقاةٌ بينَ الجنةِ والنارِ، أنتظرُ ما ينتظرُ الموحدون، فهذا ما رأيت في منامي.

وقال عبدُالله بن عمرو بن العاصِ: إنّ في الجنةَ قَصْراً، يقال له عَدْنٌ، حُولَه البروج والمروج، له خَمْسةُ آلافِ بابٍ، عند كل بابٍ خمسةُ آلافِ حيرة، لا يسكنها إلا نبيٌّ، أو صديقٌ، أو شهيدٌ، أو إمامٌ عادلٌ. وقال: إنما سُمّيَ المهديُّ مهدياً لأنه يَهدي الأمرَ الحقَّ، فيستخرجُ من التوراةِ والإنجيلِ والقرآن، فيحكم لأهل التوراة بتوراتهم، ولأهل الإنجيلِ بإنجيلهم، ولأهل القرآن بقرآنهم، ويخرجُ من غارِ أنطاكيةَ وقد سبقت الحكاية: وسيقت فيه.

obeikandl.com

البابُ الخامسُ عشرَ

فيمن أبى مِنَ الولاةِ عن الرشوةِ ومَنْ امتنعَ منهم عنِ الهديةِ

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾[1].

وقال سلمانُ الفارسيُّ سألتُ رسولَ الله ﷺ عن أشراطِ الساعةِ، قال: «إذا رأيتَ الناسَ قد ضيَّعوا الدينَ، وأماتوا الصلاة، وأكثروا القذفَ، واستحلوا الكذب، وأخذوا الرِّشا، وتشيَّدوا البنيان، وعظَّموا أربابَ الأموالِ، واستعملوا السفهاءُ، واستحلوا الدماء، فصارَ الكذبُ عندهم طريقاً، والعلمُ ضعيفاً، والظلمُ فخراً، والمساجدُ طرقاً، وكثرتِ الشُرَطُ، وحُلِّيتِ المصاحف، وطُولتِ المناراتُ، وخربتِ القلوبُ من الدينِ، وشُربتِ الخمورُ، وكَثُرُ الطلاقُ وموت الفجأة، وفشا الفجور وقول البهتان، وحلفوا بغيرِ اللهِ وائتمنَ الخائنُ، وخانَ الأمين، ولبسوا جلودَ الضأنِ على قلوبِ الذئابِ، فعندها قيامُ الساعةِ».

وقالَ سفيانُ: مرِضَ مسروقٌ فقال: واللهِ ما عملتُ عملاً أخوفَ عندي منْ أنْ يدخلني اللهُ النارَ من عملي هذا، واللهِ ما ظلمتُ فيه مسلماً ولا معاهداً، ولا أصبتُ منه درهماً.

---

(1) البقرة: الآية (188).

وقيل لقاضٍ من قضاة بني إسرائيل: فيمَ أفنيتَ عمرَكَ؟ قال ما سبقني إلى الصلاةِ أحدٌ، ولا اختصم إلي رجلان إلا أجهدتُ لهما نفسي في الحقِّ، ولا أتاني أحدٌ برشوة إلا ردتُّها عليه، ثم لم أخبر بها عنه.

وقال مكحولُ الشاميُّ لسفيانَ بنِ عوفٍ الأزديِّ كلْ قليلاً تعملْ طويلاً، والزمِ العفافَ تلزمِ الورعَ، وإياك والرِّشا، يشد ظهرك عند الخصوم.

وقال أميرُ المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ: هدايا العمالِ غلولٌ.

وقال اللّه تباركَ وتعالى لداودَ النبيِّ عليه السلام: يا داودُ إذا قعد الخصمان بين يديك، فكانَ لك في أحدِهما هوىً فلا تتمنينَّ في نفسِك أن يكونَ الحقُّ له فيفلحُ على صاحبِه، فأمحوكَ من ديواني، ولا تكونَ خليفتي، ولا كرامةَ لك.

وقال الحسن: إذا دخلتِ الرِّشوةُ من البابِ خرجَ الحقُّ من الكُوَّةِ، قيل: إن سُدَّتِ الكُوَّةُ قال: يخرجُ من حيثُ يدخلُ ملكُ الموتِ.

وقال وهبُ بنُ منبهٍ: مكتوبٌ في الإنجيل: أنَّ الرِّشوةَ تُعمي عينَ الحكيمِ، قال: ووجد مكتوباً على بابِ دارِ بعضِ الملوك:

إذا تَوَلَّى وجَمَحْ
فاضربْ به البيضَ الوضح
فإنها تُحَدِّرُه
ولو كانَ في قوسٍ قزحْ
إنَّك لو تَضْرِبْ بِهِ
جَبْهَةَ لَيْثٍ لا نْبَطَحْ

إنـــك لـــو تـــضـرب بـــه

بـــــابَ حـــديـدٍ لا نفتـــحْ

الحكاية

حكى هشامٌ قالَ: حفرَ بعضُ عمالِ أبي بكرٍ بمصرَ حفيرةً، فأفضى بهم ذلـك الحفـرُ إلى غَضَبٍ عظيمٍ من نحاسٍ مطبق، فظنـوه مالاً، فبعثَ إليه العاملُ أمناءَ ينظرون ما فيه، فلما فتحوه أصابوا شاباً عليه صوفٌ، وكساءُ صـوفٍ، وخُفٌّ إلى نصفِ ساقـه، وإذا عندَ رأسِه كتـابٌ بالعبرية، فقرِىء لهـم، فإذا فيه: أنا فـلانُ بنُ فلانٍ صاحبُ رسـول الله موسى بنِ عمرانَ، صلـوات الله عليه وسلامـه، مَنْ أحبَّ الأخـذَ بالناموسِ الأكـبرِ فليخالفْ بنـي إسرائيل، فإنهـم قد تواكلوا الحكم وعملوا بالهـوى، وباعوا الوصايا، والمنهاج الذي أُخذ عليهم ميثاقهم.

البابُ السادس عشر

في ذكرِ الظلمِ والمظالمِ، وتبعاتِ الخصومِ والملازم

قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾[1].

وقال حبيبُ بنُ سلمة: إن رسول الله ﷺ دعا إلى قصاص من نفسه، في خَدْشٍ خَدَشَه أعرابياً، لم يتعمده، فأتاه جبرائيلُ عليه السلام، فقالَ: يا محمدُ إنَّ الله تعالى لم يبعثْك جباراً ولا متكبراً، فدعا النبيّ ﷺ الأعرابيَّ فقال اقتصَّ منّي، فقال الرجلُ: قد أَحْلَلْتُك بأبي أنت وأمي، وما كنت لأفعل ذلك، ولو أَتيْتَ على نفسي، فدعا النبيّ ﷺ له بخير.

وقال عامرٌ الشعبي: إنَّ أولَ ما يُقضى بينَ الناس، يومَ القيامةِ في المظالمِ، فيما بينهم.

وقال عبدُالله بن يزيدَ السّلَميُّ: لما رجعَ جعفرٌ بنُ أبي طالبٍ من أرضِ الحبشةِ، قال له رسول الله ﷺ: أخبرني بأعجبِ شيءٍ رأيتَه في أرضِ الحبشةِ؟ فقال: رأيتُ امرأةً تمرُّ، وعلى رأسِها مِكْتَلٌ فيه طعام، فمرَّ بها فارسٌ يركضُ، وبيده مدراةٌ فدفعها بمدراتِه فسقطَ المكتلُ عن رأسها، وتبدَّدَ ما كان فيه، فَقَعَدَتْ تجمعه، وتقول: الويلُ لكَ يومَ يَضَعُ الملِك كُرسيَّه، فيأخذُ للمظلومِ من الظالم، قال: فدمعتْ عينا رسول الله ﷺ، وقال: «لا قدّسَ اللَّهُ أمةً لا يأخذُ قويُّها لضعيفِها حقَّه وهو غير متعتع».

---

(1) البقرة: الآية (270).

وقال ابنُ مسعودٍ: من سَلِم من أربعٍ يدخلِ الجنة: الدماءُ والأموالُ والأشربةُ الحرامُ والفروجُ الحرامُ.

وقال الثوريُّ: إنك لو تلقى الله بسبعين ذنباً فيما بينك وبينه، أهون عليه من أن تلقاه بذنبٍ واحدٍ فيما بينك وبين العبادِ.

قال: وسألَ كعبٌ ابنَ عباسٍ: عما يقولُ الحمارُ في نهيقه، والغرابُ في نعيقهِ، والديكُ في صعيقه، والقنبرُ في نقيره، والدرّاجُ في غريره، والفرسُ في صهيله، فقال ابن عَبّاس: الحمار يقولُ: لعنةُ الله على الظالمين، والغرابُ يقول: لعنَ الله العشارين والديك يقول: اذكروا اللَّهَ يا غافلين، والقنبرُ يقول: لعن اللَّهَ مبغضي آلِ محمدٍ ﷺ والدارّجُ يقول: الرحمنُ على العرش استوى، والفرسُ يقول: لا إله إلا الله (!!).

قال: ومكتوبٌ في الزبورِ: يا داودُ إنّهَ العِبَادَ عن الظلم، وإن كان كلُّ طائرٍ يطيرُ بجناحيه، وأنا قاضٍ عَدْلٌ، ولا أجور في الحكم، آخذُ للمظلومِ من الظالمِ، ولو لطمَ كفٌ، وجناح طير على طير.

قال: ولما استأصَلَ الرشيدُ شأفةَ البرامكةِ وُجِدَتْ تحتَ فراشِ جعفرٍ بن يحيى رقعةٌ، مكتوبٌ فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، قد تقَدَّم الخصمُ والظالمُ بالأثر، والقُدومُ على الحاكمِ العدلِ الذي لا يحتاج إلى بينةٍ، ولا يجور في الحكم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

الحكاية

مرَّ عيسى بنُ مريمَ صلوات الله عليهما عَلى قبرٍ، فسمع نياحةً وأنيناً، فدعا ربَّه أن يكلمه، قال: فخرجَ وليس له يدان، ولا رجلان، قال عيسى:

مـا بالك؟ قال: مِتُّ مُذْ تسعين سنة، فمـا سَكَنَتْ حرارةُ الموتِ من صدري، وإني كنتُ رجلاً حمَّالاً، حملتُ يوماً حزمةَ حطبٍ لرجلٍ، فأخذتُ منه خِلالاً فتخلَّلْتُ به، فسألني ربي عن ذلك، فقالَ لي ما استحييتَ مني؟ أخذتَ ما ليس لكَ، ومـا استحللتَ من صاحبها، فهذه حـالي، قال: فبكى عيسى بنُ مريم، وقال: هذا بصاحِبِ الخِلالِ فكيفَ بصاحبِ الجُذوعِ؟!

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب السابع عشر

فيمنْ لم ينتصرْ من الظالم ويَكِلْهُ إلى الحيِّ القيومِ

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ: من دعا على ظالمِهِ فقد انتصَرَ.

وقيل: مكتوبٌ في الإنجيل: منْ لم ينتصرْ من ظالمه بيدٍ، ولا بحقد، ولا بلسان، فإنَّ ما عمل ذلك [بيقين]، ومن صلَّى لظالمه فقد هزمَ الشيطانَ.

وقالَ رسول الله ﷺ إنَّ المظلومين هم المفلحون يومَ القيامةِ.

وقال الفُضيلُ: لأن أستغفرَ اللَّهَ لمن ظلمني وظلمتُهُ، أحبُّ إلي من الصومِ والصلاةِ.

وقال جعفرُ بنُ محمدٍ: ما من أحد ظُلِمَ مظلمةً فَقدِر أن يكافئ بها، فتركها لله إلا أبدلَه اللهُ مكانها عِزّاً.

وقال عيسى بنُ مريمَ: لا تظلموا ولا تكافئوا ظالماً بظلمِهِ، فيبطلَ فضلُكم عندَ ربِّكم.

وقال أبو الدرداءِ: إنَّ أبغضَ الناسِ إليَّ أن أظلمَه مَنْ لا يستعين علي باللهِ.

---

(1) النحل: الآية (126).

وكان إبراهيمُ بنُ أدهمَ يقول: إن الرجلَ ليظلمني، وأنا أرحمه، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: لأنه لا يدري لِسَخَطِ مَنْ تَعرَّض.

وسمعَ ابنُ سيرينَ رجلاً يدعو على ظالِمِه، فقال: أَقْصِر قليلاً، لا يربحُ عليك ظالمك.

قال: وكان ابنُ عيينَة يقولُ: لولا أن يأثمَ الناسُ فيَّ لكان من يغتابُني ويذمُّني أحبَّ إلي ممن يمدحُني.

وقال الفضيلُ بنُ عياضٍ: حسناتُك من عدوِّك أكثرُ منها من صديقِك، إذا ذُكرتَ بين يديه يغتابكَ في الليلِ والنهارِ، وإنما يدفعُ المسكينُ حسناتِهِ إليك، فلا ترضى إذا ذُكِرَ بين يديك حتى تقول اللهم أهلكه، لا بل تدعو له وقُلْ: اللهمَّ اغفِر له، اللهم ارحمه، فيعطيك الله أجرَك فيما دعوتَ له.

وقال يحيى بنُ معاذٍ: مَنْ دعا على ظالمه فقد أحزن محمداً ﷺ، في الأنبياءِ، والصالحين، وأسرَّ اللعينَ في الكفرة والشياطين.

قال: وكان الحسنُ يدعو ذاتَ ليلةٍ ويقولُ: اللهمَّ اعفُ عمنْ ظلمني، فأكثر ذلك، فقال رجل: يا أبا سعيد، لقد دعوتَ الله لمن ظلمك بالعفو فأكثرتَ، حتى تمنيتُ أنْ أكونَ فيمن ظلمك، فما دعاكَ إلى ذلكَ؟ قال: قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1].

قال: ولما حضرَ يعقوبَ الموتُ، قال لبنيه: ما تعبدون من بعدي؟ قالوا نعبدُ إلهكَ وإلهَ آبائكَ، قال: ففرحَ وقال: يا بني؛ احفظوا عني خصلتين؛ ما انتصرتُ من ظالمٍ بقولٍ ولا فعلٍ، ولا رأيتُ من أحدٍ حسنةً إلا أفشيتها، ولا سيئةً إلا كتمتها.

(1) الشورى: الآية (40).

الحكاية

قال عوف: دخلتُ يوماً على ابن سيربنَ فتناولتُ الحجاجَ، فقال يا عوفُ؛ إن اللَّهَ تعالى حَكَمٌ عَدْلٌ، كما يأخذ مِنَ الحجَّاجِ،كذلك يأخذُ للحجاج، وإنكَ لو لقيتَ ربَّكَ غداً، كان أصغرُ ذنبٍ أصبتَه أشدَّ عليك من أعظمِ ذنبٍ أصابهُ الحجاجُ.

obeikandl.com

obeikandl.com

البابُ الثامنُ عشرَ

في عقوبةِ من أيَّدَ الظلمة، وأعانَ الخونةَ

قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ: «مَن أعانَ الظلمةَ فقد وَلَّى الإسلامَ وراءَ ظهرِهِ».

وقال ابن عَبّاس: الظالمُ والمعينُ له والمحبُّ له سواءٌ.

وقال جعفرُ بن برقانَ: الآمرُ بالظلمِ، والعاملُ، والراضي في الإثمِ سواءٌ.

وقال سفيان: مَن بَرَى للظلمةِ قلماً، أو لاقَ لهم دواةً، أو سحا لهم سحايةً أُشْرِكَ معهم في كلِّ دمٍ أو شيء جرى مما أعانه، في مشرقٍ كانَ أو مغربٍ.

وقالَ رسول الله ﷺ: «من دلَّ سلطاناً على جَوْرٍ كان قرينه مع هامان في نار جهنم، فكانَ هو والسلطانُ الجائرُ أشدَّ الناسِ عذاباً».

وقال عطاءٌ في قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾[2]، قال: إذا أُمرتم بالمعاصي فاهربوا، فإن أرضي واسعةٌ. قال:

ورأى بحرٌ السقَّاء فقيهاً على بابِ السلطانِ فنشرَ لوحاً وتقدمَ إليه، فقال: حدثني بحديثِ كذا، وكذا، فقال: هذا موضعُ الحديث؟ فقال له بحرٌ هذا موضعُ الفقيه؟

---

(1) المائدة: الآية (2).

(2) العنكبوت: الآية (56).

وقال الفضيلُ: ما لكم والملوك؟ ما أعظم منَّتهم عليكم؟ قد تركوا لكم طريقَ الآخرة، ولكن لا ترضون به، تعينونَهم على الدنيا، وتزاحمونَهم عليها، حباً لها، أينبغي للعالمِ أن يرضى بهذا من نفسه؟

قال أبو شهابٍ: إياك وغشيانَ السلاطين، وإن دعوكَ لتقرأَ عليهم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[1]، فإن من لاقَ لهم دواةً شَرِك في إثمهم، بكلِّ دمٍ يُهراقُ من المشرقِ إلى المغربِ.

قال: وكَتَبَ عمرُ بن عبدِالعزيزِ إلى بعض عُمَّاله: أنْ استَعِنْ بأهلِ الحقِّ حتى يظهر الحقُّ على الباطل، ولا تستعنْ بأهلِ الشرِّ فيظهر أهلُ الباطلِ على أهلِ الحقِّ.

قال: وكان رسولُ الله ﷺ يدعو ويقول: «اللهمَّ لا تجعلْ للفاجرِ علينا يداً فَتُحِبَّه، وتبغضنا عليه».

وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾[2] قال: ليس بنسائهم ولا أولادهم، ولكن أشياعهَم وأشباههَم.

وقال سميطُ بنُ عجلانَ: من دعا لظالمٍ ببقاء، فقد أحبَّ أن يُعصى اللهُ في الأرض.

وقيل (لبزرجمهر): أيُّ الأمورِ أخبثُ؟ قال: التماسُ رضا الأشرار. قيل: أيُّ تعبٍ أشد؟ قال: صحبة سلطانٍ سيىء الخُلُقِ.

---

(1) الإخلاص: الآية (1).

(2) الصافات: الآية (22).

وقالَ الحسنُ: ثلاثةٌ لا ينظرُ اللهُ إليهم يومَ القيامةِ، معلمُ الكُتابِ يُكلِّفُ اليتيمَ ما لا يطيقُ، ورجلٌ يجلسُ عندَ السلطانِ يتكلمُ بهواه، ورجلٌ يسألُ وهو مستغنٍ عن السؤالِ.

وقالَ رسول الله ﷺ سيكون أمراءٌ يغشاهم غواشٍ وحواشٍ من الناسِ يظلمون ويكذبون، فمَنْ أعانَهم على ظُلْمِهم، وصدقهم بكذبهم، فإني منه بريءٌ، وهو ليس مني، ومنْ لم يعنهم على ظلمهمِ فإني منه، وهو مني.

الحكاية

حكي: أن رجلاً دخل إلى الثوريِّ، فقال: زودني منك شيئاً، فقال يا ابن أخي، لا تكنْ في الشرِّ رأساً، فإن أوَّل ما يُبدأُ به الرأسُ.

obeikandl.com

البابُ التاسعُ عشرَ

في مواعظِ العلماءِ، ووصاياهم للخلفاءِ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ: «أفضلُ الجهادِ كلمةُ حقٍّ يقولها الرجلُ المسلمُ عند سلطانٍ جائرٍ، فيُقتلُ عليها».

وقال عمرو بنُ عُبَيْدٍ، للمنصور: يا أميرَ المؤمنين؛ أعطاكَ اللهُ الدنيا بأسرِها، فاشترِ منه نفسَك ببعضها.

وقال الأوزاعيُّ لأبي منصور الخليفة: يا أمير المؤمنين إنَّ الملكَ لو بقي لمن قبلكَ لم يصلْ إليك، وكذلكَ لا يبقى لك كما لم يبقَ لغيركَ.

قال: ودخلَ على الرشيدِ بعضُ العلماءِ فقال له الرشيدُ: عظني، قال: هبِ الدنيا كلَّها في يدِك ودنيا مثلُها ضمَّت إليكَ، هب ما في المشرقِ والمغربِ يُجبى إليك، فإذا جاء الموتُ فما لك فيما في يدك؟.

وقال ابنُ عيينةَ: دخلتُ مع هارون على الفضيل، فلمّا نظرَ إليه الفضيلُ قال: حَسَنَ الوجهِ؛ قُلِّدتَ أمراً عظيماً، فانظر لنفسكَ. قال: فبكى هارونُ بكاءً شديداً، ثمَّ خرجَ.

---

(1) آل عمران: الآية (187).

وقال صالحٌ المريُّ: دخلتُ على المهديِّ، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين احملْ للهِ ما أكلِّمكَ به، فإن أولى الناس أحملُهم للعظةِ والنصيحة في أمر الله، وجديرٌ أن تحملَ لقرابتِكَ من رسول الله ﷺ، وأنْ تَرِثَ أخلاقه، وتأمر بهديه، وقد رزقكَ الله من فَهْمِ العلمِ وإنارةِ الحجّة ميراثاً، قطع به عذرَكَ.

قال: ودخلَ شَبيب بن شبَّة على أبي جعفرٍ المنصورِ، وقال له: يا شبيبُ عِظني وأوجِزْ، قال: إنَّ الله لم يرضَ من نفسِه أن يجعلَ فوقَكَ أحداً من خلقِه، فلا ترضَ له أن يكونَ أحدٌ أطوعَ لله منك.

قال: ودخل منصور بنُ عمارٍ على الرشيد، فقالَ له: عظني، فقال له: يا أميرَ المؤمنين، إن سليمانَ عليه السلام الذي سُخِّر له الطير، وعفاريت الجن والشياطين، أليس قد نعقَ عليه صائحُ الموتِ فأزعجه من قراره ووطنه، وسَلَبَه من نضارةِ مُلكِه وبهجته، فيالله ما الذي أبقاكَ بعدَ البقاءِ بعدَه؟

قال: ودخل أبو حازم على عبدِالملك بن مروانَ، فقال: يا أبا حازم؛ أتعرف ما حالنا عند الله؟ قال: نعمْ إن كنتَ من أولياءِ اللهِ فإنَّ مَثَلَهم كمثلِ غائبٍ عن أهلهِ زماناً، فلمّا أفضىَ إلى بيتهِ فرحَ هو وأهلهُ، وإن كنتَ من أعداءِ اللهِ فإن مَثَلَهُم كمَثَلِ عبدٍ أَبقَ من سيده زماناً، فأُتيَ به إلى سيِّده مُوثَقاً بسلسلة، فإنْ أردتَ يا أمير المؤمنين أن تعرفَ ما حالُكَ عندَ الله اعرضْ أعمالَكَ على كتابِ اللهِ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾[1]، قال يا أبا حازمٍ فأينَ رحمةُ اللهِ؟ قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[2].

(1) الانفطار: الآيتان (13 - 14).
(2) الأعراف: الآية (56).

قال: ودخلَ الثعلبـيُّ إلى بعض السلاطين، فقال: صُنْ شرفَكَ بتشريفِ الأكرمين، وقوتَك بتقويةِ المساكين، ونعمتَكَ بالإفضالِ على المحتاجين، لأنه كم من شريفٍ أرداهُ العجب من العوالي إلى معاطب الذل، وكم من مُتنعِّم أوردته الشدائد إلى مناهل الحزن، وإنما جعلَ اللّٰه فيك عزاً سنياً، وشرَفاً منيعـاً، ولساناً لطيفاً، وذِكْراً جليلاً، ومحبةً جليلـةً لِيَبْلُوكَ بحُسْنِ الشكر، ويُرَغِّبَـكَ في لزومِ الذخرِ والأجر، ليكونَ ذهنُك وهمتُّك فيما أولاكَ إلى ما يُزْلِفُـكَ إليه، لتنال الداريـن، فارغبْ إلى اللّٰه فإن مَمـرَّكَ عليه، وتواضعْ لأوليائـه فإنهـم شفعـاؤُك إليـه، وإنَّ أربح التجـارةِ ما فيها ربـحُ الآخرةِ والأولى.

الحكاية

حكـي: أنه لمـا دخلَ منصـورُ بنُ عمارٍ علـى أمـيرِ المؤمنين هارون الرشيـدِ قـال له: فإنَّ مـن تاب إليه حبـاه، ومن توكل عليـه كفاه، ومن أحسن إليه جازاه.

obeikandl.com

الباب العشرون

في تواضعِ الأمراءِ، وانبساطِ العظماءِ

قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾[1].

وقال أنسُ بنُ مالكٍ كان رسول الله ﷺ يعودُ المريضَ، ويشيّعُ الجنائزَ، ويجيبُ دعوةَ المملوكِ، ويركبُ الحمارَ، ولقد رأيتُه يومَ خيبر على حمارٍ خطامُه لِيفٌ، وعليه إكافٌ من ليفٍ.

قال: واشترى عليّ بن أبي طالبٍ تمراً بدرهم، فحملَه في مِلْحَفَتِه، قيل: يا أميرَ المؤمنين يُحملُ عنك، قال: أبو العيالِ أحقُّ بحمله.

وقيل: فيما أوحى اللهُ إلى عيسى بنِ مريمَ؛ أن اللَّهَ تعالى قالَ: إني إذا أنعمتُ على عبدٍ نعمة، فاستقبلها بالاستكانةِ أتممتها عليه.

قال: وطلب هشامُ بنُ عبد الملكِ رجلاً، بلَغَه عنه ما كَرِهَ، فأُتِيَ به، فلما صارَ بين يديه، تهدَّده هشامٌ وتوعَّده، وانبسطَ الرجلُ، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ تأبى أنْ نتكلّمَ كلاماً بين يديك؟ أليسَ اللهُ يقول: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾[2]، فتجادلُ جدالاً بين يدي الله؛ وأنت تأبى أن نتكلّمَ كلاماً بين يديك؟ قال: فنزلَ هشامٌ عن سريرِه تلك الساعة، وخرَّ حتى لَصِقَ بالأرض مستكيناً

(1) الفرقان: الآية (63).

(2) النحل: الآية (111).

متخشعاً، ثم قال للرجل: ويحكَ تَكَلَّم، فما بَرِحَ الرجلُ حتى تكلم، وقَبِلَ هشامٌ عذرَه، ورضي عنه ووصله وأكرمه.

وقال عليُّ بنُ أبي طالب ﷺ: ثلاثٌ من شرفِ التواضعِ؛ أن يرضى بالمجلسِ الأدنى عن شرفِ المجلس، وأن يكرهَ المديحةَ بالبرِّ، وأن يَدَعَ المراءَ وإن يكنْ محقاً.

وقال الفضلُ بنُ الربيعِ: ركبتُ مع هارونَ إلى الفضيل؛ فلمّا قرعنا بابَه خرج عليُّ بنُ الفضيلِ، فقلتُ: يا عليُّ هذا أميرُ المؤمنين، يريدُ الدخولَ على أبيك، قال عليٌّ: وما يصنعُ الخليفةُ بأبي وهو مشغولٌ بالبكاءِ والنحيب؟ فلما دخل عليه وسلّم، جلس بين يديه ساعةً، فلمّا رآه الفضيلُ لم يتكلمْ بشيءٍ قامَ، وخرج.

وقال ابن عَبّاس: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما منْ بني آدمَ إلا في رأسِه سلسلتان إحداهما في السماءِ السابعة، والأخرى في الأرضِ السابعة، فإذا تواضعَ رفعَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بسلسلتِهِ التي في السماءِ، وإذا أراد أن يرفعَ نفسَه وضع اللَّهُ بسلسلته التي في الأرض، ووضعَه اللَّهُ، وما تواضعَ عبدٌ للّهِ إلا ازدادَ له عزاً».

وكان سليمانُ النبيّ عليه السلامُ، فيما آتاه الله من الملكِ، إذا دخلَ المسجدَ، فنظرَ إلى مسكينٍ جلس إليه، وقالَ: مسكينٌ جالَسَ مسكيناً.

قال: وخَرَج عمرُ بنُ هشام[1] لينظرَ في أمورِ الناسِ والعمالِ فريداً،

---

(1) ليس في الخلفاء مَنْ اسمه: (عمرُ بن هشام) قط، وخليفةُ خليفة رسول الله ﷺ هو أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ، ولم يكن في طبعه التصنع، وقد كان في المدينة، ولم يكن فيها رهبان ولا صوامع ولا بيع في عهده ﷺ، وغالب الظن أن هذه القصة تلفيق، مع أبياتها الشعرية، والله أعلم.

وحيداً، راجلاً، معه عَصَاهُ وركوةٌ، في خَلِقٍ من الثياب، على زيٍّ مساكينَ، قال فبلغ إلى عند صومعةِ راهبٍ، قال: فتأملَ إليه الراهبُ، وقال: أنتَ خليفةُ رسولِ اللهِ قال: «لا»، قال: أنت خليفةُ خليفةِ رسول الله؟ قال: نعم، قال: كيف عرفتني؟ قال: ما عرفتُكَ إلا بعلامتِكَ التي وجدتُ في الكتبِ، فدفعَ إليه كاغداً فيه من الورِق، قال: خذها فتزود لنفسك، فأبى، قال: معي زادي، ومضى على سبيله، فأنشد فيه الراهب يقول:

يا من تَرفَّع بالدنيا وزينتها
ليس الترفع نَقْلُ الطينِ بالطينِ
إذا أردتَ شريفَ الناسِ كلهمُ
فانظر إلى مَلِكٍ في زيِّ مسكينِ
فذاكَ من حسُنَتْ في الناسِ عِشْرَتُه
وذاك يَصْلُحُ للدنيا وللدينِ

الحكاية

حكي: أن العباسَ عمَّ المصطفى ﷺ جاء إلى رسول الله ﷺ وسأله الإمارةَ، فقال النبيّ ﷺ يا عمِّ نفسٌ تنجيها خير من إمارةٍ لا تحصيها، إنَّ الإمارةَ حسرةٌ وندامة، فإن استطعتَ ألّا تكون أميراً فافعل.

obeikandl.com

البابُ الحادي والعشرون

في نصيحةِ أهلِ السلوكِ للأمراء والملوك

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾[1].

وقال النبيّ ﷺ: «الدين النصيحة».

وقال عليٌّ بنُ أبي طالب ﷺ: من لم ينفعْه الحقُّ ضرَّه الباطلُ، ومَنْ لم يَسْتَغْنِم الهدى حارتْ به الضلالةُ، ألا وإنكم قد أُمرتُم بالظعن، ودُللتم على الزادِ، وإنَّ أخوف ما أخافُ عليكم اتباعُ الهوى، وطولُ الأملِ.

وقال عتبة بن أبي سفيانَ: اعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم، فأصلحوا لنا ما ظَهَرَ، حتى نَكِلَكُم إلى اللهِ فيما بَطَنَ، وأظهروا خيراً وإن أسررتم شراً، فإنكم حاصدون ما أنتم زارعون.

قال: وكتب أبو المتوكل: إلى عمرَ بنِ عبدِالعزيزِ، فكان في كتابه: اعتصمْ باللهِ يا عمرُ اعتصامَ الغريقِ مما ينجيه من الغرقِ، وليكنْ دعاؤك دعاءَ المضطَّرِ المشْرِفِ على الهَلَكَةِ، فإنكَ أصبحتَ عظيمَ الحاجةِ، شديدَ الإشراف على المعاطِبِ.

قال: وكتبَ عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ إلى يزيدَ بنِ عبدِالملكِ: إياكَ أن تدركَ الصرعةَ عند الغِرَّةِ، فلا تُقالُ العَثْرةُ، ولا تُملَكُ الرجعةُ، ولا يحمَدُك من خلَّفت ممنْ تركتَ، ولا يعذرك مَنْ تقدَّم إليه بما اشتغلت.

---

(1) المائدة: الآية (8).

قال: وكتب عمرُ ﷺ إلى أبي موسى الأشعريِّ: إياكَ أن يكونَ مَثَلُك مَثَلَ البهيمةِ كلما نظرتْ إلى الأرضِ خَضِرَةً رتعتْ فيها تلتمس السِّمَنَ في ذلك، وإنما حتفها في سِمَنِها، والسلام.

قال: وكانَ بعضُ الملوكِ الأُوَلِ ينادي كلَّ يومٍ في أهلِ مملكتِه ثلاثَ مراتٍ، يقول: غافِصُوا الأمورَ قبل إمكانها، وكِلُوا الأمورَ إلى أربابها، ولا تكلفوا قلوبَكم هَمَّ ما لم يأتِ، تقتيرُ المرءِ على نفسهِ توفيرٌ في خزانةِ غيرِه، كم من جامعٍ لبعلِ زوجتهِ، يقولها في كل يومٍ ثلاثَ مراتٍ.

وقال معاوية ﷺ: الناسُ على أربعةِ أصنافٍ؛ منهم من لا يمتنعُ الفسادَ إلا مهابةَ نفسهِ، وكلال حَدِّه، يَقُوده رضا بالدنيا عوضاً لما عند الله، فبئسَ متجرُهم، ومنهم من طلبَ الدنيا بعملِ الآخرةِ، فزخرفَ نفْسَه للأمانةِ، واتخذ سُنةَ اللهِ ذريعةً إلى المعصية، ومنهم مَنْ أقعدَتْهُ عن طلبِ المالِ صَولةٌ في نفسِه، وانقطاعُ سببِه فتحلى باسم القناعة، وتزيَّنَ بلباس الزِّهادِة، وليس ذلك مِن معدِنٍ، وبقيَ رجالٌ أغضَّ أبصارَهم ذِكْرُ المرجعِ، وأسالَ دموعَهم خوفُ المحشر، فهم بين شديدٍ بادٍ، وخفيٍّ مُفتقدٍ.

الحكاية

حُكي: أن ابن عَبّاس دخلَ على عمرَ يوماً، فوجدَه حزيناً ينظر إلى السماء، وَتَنَفَّسُ تنفُسَ الصُعَداء، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ لعلك يُهِمُّك أمرُك مِنْ بعدِك؟ قال: أجل، وما أخذَ له موضعاً، فذكرت أحداً من بني هاشم، فقال: هو أولى الناسِ بها لولا أنَّ به دُعابة.

البابُ الثاني والعشرون

في وصفِ ملوكِ الأعاجمِ، ورسومهم بالمكارم

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾(1).

وقالَ رسول الله ﷺ: «إذا عَظَّمت أمتي الدنيا نُزِعَتْ منها هيبةُ الإسلامِ، وإذا تَرَكُوا الأمر بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر، حَرُمَتْ عليهم بركةُ الوحيِ».

وقال (أردشير) ملكُ فارسَ لابنهِ: يا بنيَّ اجعلْ حديثَكَ مع أهلِ المراتبِ، وعَطيتَّك لأهل الدين، وبِشْرَكَ لمن أغناه ما أغناك من أهلِ العقلِ.

وقال نَهلة: أحسنوا إلى أهل الخراجِ، فإنكم لن تزالوا سماناً ما سَمِنوا.

قال: ولما أراد (الإسكندر) الخروجَ إلى أقصى الأرضِ، قال (لأرستطاليس): اخرجْ معي، قال نَحَل جسمي، وضعُفتُ عن الحركة، فلا تزعجني، قال: فأوصني في عُمَّالي خاصةً قال: انظر من كانَ منهم له عبيدٌ فأحسن سياسته، وولِّه الجندَ، ومن كانت له ضَيعةٌ فأحسنْ تدبيرَها وولِّهِ الخراجَ.

وقال الهلالي: كانَ ملكٌ من ملوكِ الأعاجم، سألَ أهلَ مملكته: أَنِ اختاروا خَصْلةً أَسْتَعِنْ بها، قال بعضُهم: الصبرُ، وقال بعضُهم القَناعةُ، ثم اجتمعوا على أن يَعْرِفَ الإنسان قَدْرَ نفسه.

---

(1) القصص: الآية (83).

قال: وأوصى بعضُ ملوكِ العَجَمِ ولاةَ أمرِهِ وعمّاله: ألّا تُحابوا أحداً في أخذ حقٍّ من الحقوق منه، إلا مَنْ إذا أزعجتموه يلتجىء إلى مَنْ فوقي، لأن من يلتجىء إذا اشتدَّ به الأمرُ إلى خلصائي فإني أكفيهم منهم، ولا قِوام إلى من يلتجىءُ إلى من هو فوقي، فإنه يلتجىءُ إلى الله، وأيُّ قدرة لي مع الله؟.

قال: وأوصى ملكٌ آخرُ إلى مَنْ يوليه: أنْ كنْ بالحقِّ عمولاً، وبالصدق قؤولاً وعما جهلت سؤولاً وافحصْ عن الأمورِ تتجلى لك، واستبطنْ أهلَ التقوى، وذوي الأحساب، فَتُزَيِّنُ نفسَك، ويحكُمْ أمرُك، وإياكَ وقبولَ التزكيةِ فيما لا شك أنه فيك مكذوبٌ، فإنها خَدعة تتبعها صَرعة، ولا تجعلنَّ سرَّك إلا إلى من يكتمُه، ولا تولِّ أمرَكَ إلا مَن يُهمه ما أهمك، ولا تثقْ برجلٍ تتهمه، ولا تُعوِّد لسانك الخَنَا، وإياك وكَثْرَةَ التأني، ولا تكلّف نفسَك بما لا تقوى عليه، وإذا هممتَ بخيرٍ فعجِّلْهُ، وإذا هممتَ بخلافه فتَأنَّ فيه، واعدلْ في الرعية، وارحمْ تُرحمْ.

وقال (أنوشروان)؛ ملك الفرس لحكماءِ الفرسِ: ليتكلمْ كلُّ رجلٍ منكم بكلام موجزٍ، فقال بعضُهم: أقبحُ الأشياءِ للسلطانِ اللَّجَاجَةُ، وقال آخرُ: أقبحُ الأشياء للحُكَّام الضَجَرُ قَبْلَ الفَهْمِ، وقال آخر: أقبحُ الأشياءِ للفقهاءِ سخافةُ الدين؛ وقال آخر: أقبحُ الأشياءِ بالعلماءِ إفراطُ الحِرص، وقال آخر: أقبحُ الأشياءِ بالمقاتلِ الجُبنُ، وقال آخر: أقبحُ الأشياءِ بالأغنياءِ البخلُ، وقال آخر: أقبحُ الأشياءِ بالفقراء التَّكَبرُّ، وقال آخر: أقبحُ الأشياءِ بالأشياخِ المزاح، وقال آخر: أقبح الأشياءِ بالشُّبَّان الكسل، وقال آخر: أقبحُ الأشياءِ بأهل الجماعات التخالف والتباغض.

وقال المدائنيُّ: خرجَ الزُّهريُّ يوماً من عندِ هشامِ بنِ عبدِالملكِ، فقال: ما رأيتُ كاليوم ولا سمعتُ كأربعِ كلماتٍ، تكلّمَ بها رجلٌ آنفاً، فقيل له: وما هي؟ قال دخلَ رجلٌ إلى أميرِ المؤمنين، فقال احفظْ عني أربعَ كلماتٍ فيهن صلاحُ ملكِكَ، واستقامةُ رعيتِكَ قال وما هن؟ قال: لا تَعِدَنَّ عِدَة لا تَثِقُ مِنْ نفسك بإنجازها، ولا تأمن على لطف عدوك إذا علمت ما يحبُّ منك، ولا يَحزنكَ مرتقىً وإن كان سهلاً، إذا كان المنحَدَر وَعِراً، واعلمْ أنَّ للأعمالِ جزاءً فاتقِ العواقبَ، وللأمورِ بغتاتٍ فكن منها على حذر.

الحكاية

قال ابنُ دأبٍ: دخلتُ على أميرِ المؤمنين وفي [يده] أكلة قد رفعها إلى فيه فأمسكها وجعل يقول: هاتِ إن حديثك أعجبُ إليَّ من لقمتي هذه.

obeikandl.com

obeikandl.com

البابُ الثالثُ والعشرون

في ذِكْرِ المروءة، وحُسْنِ الفتوَّةِ

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ: «تجافوا عن ذي المروءة ما لم يقع حدٌّ، وإذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه».

وقال أميرُ المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ: من عَلِم من أخيه مروءة جميلة، فلا يسمعنَّ فيه الأقاويلَ.

وقيل لشريحٍ: أيُّ الرجالِ أعجبُ إليك؟ قال: الشريف، العفيف، العاقل.

وقال عليٌّ بن سليم: كان قيسُ بن سعد يقول: اللهم ارزقني حمداً ومجداً، فإنه لا حمد إلا بفعال، ولا مجد إلا بمال، ولا يسعني القليل، ولا سعة إلا بالكثير.

وقال أبو عبد الله الحسين بن علي: ما وقع غبار مركبي على أحد إلا وجب حقه علي.

وكان المهلَّبُ يجمع بَنِيهِ فيعظهم، ويقولُ لهم: يا بَنِيَّ قومُكم قدَّموهم فإن لقومكم عليكم حقاً، إنهم سَوَّدوكم وفضَّلوكم ووطَّؤوا أعقابكم، وبذلوا

(1) البقرة: الآية (274).

أنفسهم دونكم، وبلغتم حاجَتكم في الناسِ بهم، فلهم بذلكم حقٌّ عليكم، فافتحوا لهم أبوابكم، وإن شتموكم فاحتملوا لهم ذلك، فإنكم لن تزالوا في علوٍّ من أمركم ما دام ذلك الرأيُ فيكم.

وسُئلَ الأحنفُ بنُ قيسٍ عن المروءةِ، فقال: الحلمُ عند الغضب، والعفو عند القدرة.

وقال أيضاً: المروءةُ الحزمُ وهو تبعٌ للعقل، ولا تصلُح المروءةُ إلا بالتواضعِ فإنَّ: حياةَ المروءةِ الصدقُ، وحياةَ الروحِ العفافُ، وحياةَ الحلمِ الأناةُ.

وذُكِرَ أن رجلاً أتى ابنَ هبيرةَ، وكان له صديقاً في الدهر، فجاءَه متعرِّضاً لمعروفه، فلم يذكر له شيئاً من حاجته، وقد كان أكرمَ مجلِسَه وأدناه منه، فقال ابنُ هبيرةَ: ألا تذكر حاجتك؟ فقال الرجلُ: كفى طلباً لحاجة كلُّ امرئٍ مداومةُ الزيارةِ والسلامُ، فقالَ ابنُ هبيرةَ: صدقتَ فأعطاه وكساه.

وقيل لقَسّ بن ساعدةَ: ما أفضلُ العلم؟ قال: وقوفُ المرءِ عند علمه، قيل فما أفضلُ المال؟ قال: ما قُضِي فيه الحقوق، قيل: فما أفضل المروءة؟ قال: استبقاءُ المرءِ ماءَ وجهِهِ.

وقال الأصمعيُّ عن بعضِ الحكماءِ، قال: ليستِ الفتوةُ الفسقَ والفجورَ، ولا شربَ الخمورِ، إنما الفتوةُ والمروءةُ، طعامٌ موصولٌ، ولسانٌ معسولٌ، ونائلٌ مبذولٌ، وعفافٌ معروفٌ، وأذى مكفوفٌ.

وقال الشاعر:

وليس فتى الفتيان مَنْ راحَ واغتدى

لشربِ صَبوحٌ أو لشربِ غبوقِ

ولكنْ فتى الفتيانِ مَنْ راحَ واغتدى

لضُرِّ عَدوٍّ أوْ لنفعِ صديقِ

وقالَ فيلسوفُ الهندِ: ذو المروءةِ مكرمٌ، وإنْ لم يكنْ معه مالٌ، كالأسدِ يُهابُ وإن كان مربوطاً، ومَنْ لم يكن له مروءةٌ فيُهانُ وإن كان موسراً، كالكلبِ يُهان وإن طُوِّقَ وحُلِّيَ.

وقيلَ لأعرابيٍّ: ما القِرى؟ قال: نار يعلو شرُفها وخيمةٌ يُوطأُ كنفُها.

وقيلَ لآخرَ: مِمَّنِ الرجلُ، فقال: من الذين لا تَخْفى نارُهم ولا يُجفَى جارُهم.

وقالتِ الخنساءُ: تذكرُ أخاها وكرمه وجوده:

له نارٌ تُشبُّ بكل وادٍ

إذ النيرانُ أُلبستِ القناعا

وليسَ بأكثرِ الثقلين مالاً

ولكنْ كانَ أرحَبهم ذِراعاً

الحكاية

سُئلَ حاتم فقيلَ له: هل رأيتَ في العربِ أكرمَ منك أحداً؟ فقال: نعمْ رأيتُ صبياً يتيماً، أكرمَ مني، قيلَ له: كيفَ؟ قالَ: إني نزلتُ ضيفاً في بيت، لا أدري لمن هو، فأُحضِر لي ضأنٌ حَنيذٌ فاستطبتُ مُخَّ عظمِ الساقِ منها، فقلت: ما ألذَّ هذا! فلما كان بعد زمانٍ مضى من الليلِ، رأيتُ قد حُمِلَ لي جَفْنَةٌ كبيرةٌ تكفي جماعةً كثيرةً مملوءةً من المخِّ، الذي تلذذتُ بأكله، فتعجَّبتُ من همَّةِ صاحبِ المنزلِ، إذ لم أره، فلما أضاءَ الفجرُ سألتُ

عـن ربِّ المنزِل، من هو؟ فقيلَ لي: هو صبـيٌّ لم يبلغِ الحُلُمَ، فأتيته فرحَّب بـي، ووضعَ رأسَه على قدمي، واعتذرَ غايـةَ العذر إلي، وقال: إنني لم أُوثر الوقـوفَ بـين يديكَ إلا تعظيمـاً وإجلالاً لقدرك، وتشريفـاً لي، لئلا تمتنع مـن أكلِ الطعامِ في منزلي، إذا رأيتني، لحقارتي ويُتمي وصبوتي، فاحْتلتُ عليـك ببعـادي عن خدمتكَ، قال لـه: ما حمَلَك على هـذا الإسرافِ الذي صنعت؟ فقال: لا سَرَفَ فيمن أراد الشرفَ بمثلك، فإن الذي جُدْتُ به أَجِدُ مثلَـه، ولا أَجِدُ مثلَك، فقال حاتم لقد تعجبـتُ من معرفته، وحسنُ كلامه، أكـثر ممـا تعجبت من جوده، وبـذل طعامه، فهـو أكرمُ منـي؛ إذ جاد لي بجميـعِ ما يملك، وأنا إنمـا أجودُ ببعضِ ما أملكُ، والجود بكل شيء أعظم من الجود ببعضه.

البابُ الرابعُ والعشرون

في ذِكْرِ الغَوثِ والتظلم، وسدِّ الخللِ والتثلُّمِ

قال الله تعالى: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ: «اتقوا دعوةَ المظلومَ فإنها تُحمل على الغمام، يقول الله: «وعزتي وجلالي لأنصرنَّه، ولو بعدَ حينٍ».

وقال ﷺ: «لا قدَّسَ اللَّهُ أمةً لا يأخذ قويُّها لضعيفها حقَّه غيرَ متعتع.

قال: وقامَ رجلٌ إلى عمرَ بنِ عبدِالعزيز، فقال:

مـا زلتَ تطلبُ مظلومـاً لتنصِفه

فقـد أتـاك بـعيدُ الـدرِ مظلومُ

فقـال له عمرُ: مـا شأنُك ويحَكَ؟ قـال: إن أباك ظلمنـي، وغصبني، وأخـذ ضَيْعتـي، وتعدّى علي، فقـال عمر: أمـا كانَ كلامٌ أحسنُ من هذا؟ ورد عليه ضَيْعَتَه.

قـال: ووَشَى رجلٌ بقيسِ بنِ سعـدٍ، إلى الوليدِ بنِ عبدِالملك، بأنه يطعنُ على الأمـراءِ، فأرسلَ إليه، فأتاه وهو يرتعد خوفـاً، والرجلُ الذي وشى به عنـده، فسأله عن ذلك فأنكـر، والتفتَ الوليدُ إلى الرجل وقال: يا قيس إنَّ هـذا يشهد عليك فنظر إليه فقـال: يا هذا هكذا قلتُ؟ قـال: نعم، فنكّسَ

(1) النساء: الآية (148).

قيسٌ رأسه ساعةً، وجعل ينكتُ في الأرض، ثم رفع رأسه، فقال: يا ربِّ إن كنتَ تعلمُ أنه يشهد علي بما لم أقله فأرني مَصْرعَه فانكبَّ الرجل على وجهه، فلم يزل يضطربُ، حتى مات.

وقال ابن القِرِّية للحجاجِ في كلامٍ له: أقلني عَثْرتي وأسِغني ريقتي، فإنه لا بدَّ للجوادِ من كَبوة، وللسيفِ من نَبوة، وللحَليم من هفوة، فقال الحجاجُ: كلا والله حتى أوردَك جهنمَ، ألستَ القائل لابنِ الأشعثِ: تغدَّ بالحجاج قبل أن يتعشَّى بكَ؟ ألَم يكن في خُمولٍ من الديار، وتضعضعٍ من الهيبة، وعدمٍ من المالِ، وكَدٍّ من العيش، وإياس من بلوغ ما بلغتَ، وليتُكَ ولاية الراجي عندك الخير، فلم أرَ عندكَ الخير، ثم قال: يا غلامُ ائتني بالحربةِ، فأتاه بها فهزها هَزةً فجزِعَ ابنُ القرية عند ذلك، وقال: دعني أتكلمْ بكلماتٍ صفوفِ الرُّكبِ، وقوف، تكُنَّ مثلاً من بعدي، قال: هاتِ ولكنهن لن ينجينَكَ، قال: لكلِّ جوادٍ كبوةٌ، ولكلِّ صارم نبوة، ولكلِّ حليمٍ هَفوةٌ، ولكلِّ عالمٍ زلةٌ، ولكلِّ مجتهدٍ فَتْرَةٌ، ولكل شُجاعٍ سهوةٌ ولكلِّ مذنبٍ توبةٌ، قال: ثم ضربَ الحربةَ على ثُنْدُوتِهِ فبهره، ثم قال: هكذا تَشْخَبُ يا بن القريةِ أوداجُ النِّمرة ثم قال: لقد فاتَ علمٌ كثيرٌ، ومنطق بليغ، يا غلمانُ جُرُّوهُ.

قال: وقدِمَ أَعرابيٌّ على هشامِ بنِ عبدِالملك، وقال: أيُّها الأميرُ أتتْ على الناسِ سنون ثلاثٌ أمَّا الأولى فأكلتِ الشحمَ، وأما الثانيةُ فأكلتِ اللحمَ، وأما الثالثةُ فَبَهَضَتِ العظَم، وعندكَ فضولُ مالٍ فإن كانتْ للّه، فاقسمْها بين عبادِ اللّه، وإن كانتْ لهم، فلم تحظرها عنهم؟ وإن كانتْ لكم فتصدق، فإن الله يجزي المتصدقين.

الحكاية

حكي: أنه كان في الزمنِ الأول مَلكٌ وله ابنٌ كان وليَّ عهدِهِ، فمرَّ الابنُ يوماً على قرية، فسقط فيها من الفرسِ، وانكسر، فغضبَ الملكُ على أهلِ تلك القرية، وأمر بتخريبها ومعاقبة أهلها، فاجتمع إليه أهلُ القرية، وتضرّعوا إليه، فلم يسمعْ ولم يلتفتْ إليهم، وكان قد بعثَ إليهم الأفيالَ يقلعوا أشجارَها، ويخربوا عمرانها، ويقتلوا أهلها، فلما أيسوا منه، تضرعوا إلى الله تعالى، ودَعَوْه مخلصين، إذْ جاء فارسٌ من اللهِ، فصاحَ على الأفيالُ، فرجع عليهم الأفيالُ، وكبسوهم جميعاً، حتى هَلَكَ الملكُ فيما بينهم، فلم يبقَ منهم عينٌ تطرفُ.

obeikandl.com

البابُ الخامسُ والعشرون

في آفةِ قتالِ المسلم، وإهراق دم المستسلم

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ: «قُسِّمتِ النارُ على مئة جزء، تسعةٌ وتسعون للآمِرِ وجزءٌ للقاتل وحَسْبُه».

وقال ابن عمر: قَتْلُ المؤمنِ أعظمُ عند الله من زوالِ الدنيا.

وقال أبو الدرداء: يجيءُ المقتولُ يومَ القيامة، فيجلسُ على الجادةِ، فإذا مرَّ به القاتلُ قامَ إليه، فأخذ بتلابيبه، فيقول: يا ربِّ سَلْ هذا لِمَ قتلني؟ فقال: أمرني فلان، قال فيؤخذُ القاتلُ والآمرُ فيلقيان في النار.

وقال أبو موسى الأشعريُّ: ما خصمٌ أبغض إليَّ يوم القيامةِ، منْ خَصْمٍ يجيء تَشْخَبُ أوداجُه دماً، يحبسني عند ميزان القسط، فيقول: يا ربِّ سَل عبدَكِ لِمَ قتلني؟ أفأقول: إنه كذب لا أستطيع، أفأقول: إنه كان كافراً، يقول لي ربي: أنت أعلم بعبدي مِنِّي؟

وقالَ رسول الله ﷺ: «من اشترك في قتلِ مؤمنٍ ولو بشطر كلمة، جاءَ يومَ القيامة مكتوباً بين عينيه: إنه آيسٌ من رحمةِ اللهِ، ولو أن أهلَ السمواتِ وأهلَ الأرضِ اشتركوا في دم مؤمن، لكان حقاً على الله أن يكبَّهم في النار».

---

(1) الإسراء: الآية (33).

وقال عِمرانُ بن حُصينٍ: أَتَى رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أذنبت يا رسولَ اللّٰه، فاستغفِر لي، قال: ما هو؟ قال: إني حملتُ على رجلٍ من المشركين، فقال: لا إله إلا اللّٰه، إني مسلمٌ، فظننتُ أنه متعوِّذٌ فقتلتُه. فقال له: لا أستغفر لك، هلا شققتَ قلبه؟ فقد قال بلسانه فلم تصدقه، قال فلمْ يلبثِ الرجلُ أنْ ماتَ فكلّما دُفِنَ فإذا هو طريحٌ فوقَ الأرض، فأخبرَ بذلك النبيّ عليه السلامُ، قال: إن الأرض لتقبل شراً منه، ولكنَّ اللّٰهَ أعلمَكم عظمَ الدمِ، ثمَّ قال: اذهبوا به إلى سفحِ هذا الجبل، فانضدوا عليه من الحجارة.

وقال عبد الملك بن عمير: دخلتُ القصر فإذا أنا برأس الحسينِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضوان اللّٰه عليه على تُرْسٍ، وابنُ زيادٍ على السرير، ثم دخلتُ القصرَ فإذا برأسِ ابن زيادٍ على ترس، والمختارُ على السرير، ثم دخلتُ القصرَ، فإذا برأسِ المختار على ترس، ومصعب بن الزبير على السرير، ثم دخلت القصر فإذا برأس مصعب على ترس، وعبدالملك بن مروان على السرير.

وقال الزُّهريّ: من أعان في دم امرئٍ مسلمٍ بشطرِ كلمةٍ، لقيَ اللّٰهَ يومَ القيامةِ واللّٰهُ عليه ساخطٌ.

وقالَ رسول اللّٰه ﷺ: «مَنْ قتلَ نفساً بغير حقٍّ، حرَّم اللّٰهُ عليه الجنةَ أن يجدَ ريحها».

الحكايةُ

حكي: أُن الحجاجَ بنَ يوسفَ رُئِيَ في المنام، وقيل لهُ: ما فعلَ اللّٰهُ بك؟ فقال: قتلني بكلِّ قَتلةٍ قتلتُ قتلةً، إلا بقتلِ سعيدِ بنِ جبيرٍ، فإني قُتلتُ بها سبعين قَتلةً.

البابُ السادسُ والعشرون

فيمن أَسعَفَ بقضاء الحاجاتِ، وجادَ في العطيَّاتِ

قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ: «السخيُّ قريب من الله، قريبٌ من الناسِ، قريبٌ من الجنةِ، بعيدٌ من النارِ. والبخيلُ بعيدٌ من الله، بعيدٌ من الناسِ، بعيدٌ من الجنةِ قريبٌ من النارِ».

وقال ﷺ: «ما تحسرتُ على موتِ أحدٍ كتحسرّي على أبي طالبٍ؛ في بِرّه، وحاتمِ الطائيِّ في جوده، وامرئ القيسِ في شعره».

وأُتيَ عمرُ بنُ الخطابِ بأربعِ مئةٍ من الإبلِ، محملّة دراهمَ ودنانيرَ ولؤلؤاً وَزَبَرْجَداً، من غنائم فارسٍ، فلمّا نظر إليه قال: واللهِ لا يأويني وإياها سقفُ بَيتٍ حتى أقسمَه بين المسلمين، ثم بكى، فقيل له: إن هذا المقام مقامُ فرحٍ وشكرٍ، قال: ما فُتحتِ الدنيا لقومٍ قطُّ إلا وأُلقي بينهمُ العداوةُ والبغضاءُ، قال فلم يمُسِ وعنده منه شيء.

وكان يقال: من أراد العلمَ والسخاءَ والجمالَ فليأتِ دار العباسِ بنِ عبدِالمطلبِ، كان عبد الله أعلمَ الناسِ، وكان عبيدُ اللهِ أسخى الناسِ، وكان الفضلُ أجملَ الناس، ثم قال: دخل أعرابي على عبيدِ اللهِ بنِ عباسٍ،

(1) آل عمران: الآية (92).

فقال: أصلح اللَّهُ الأميرَ، عليَّ دَينٌ غالبٌ وصبيةٌ مجموعة، فقالَ عبيدُ اللهِ، كم دَيْنُك؟ قال خمسون ألفَ درهمٍ، فأمرَ له بها، فأنشأ الأعرابيُّ يقول:

أمِنتُ بداودٍ وجُودِ يَمينه
من الحدثِ المغشي والبؤس والفقرِ
وأصبحتُ لا أخشى بداودَ نَبوَةً
ولا حَدثان أن شَدَدتُ به ظهري
فما طلحةُ الطلحات ساوا مي في الندى
ولا حاتمُ الطائي ولا خالدُ القسري
له عِلْم لقمانٍ وصورةُ يوسفٍ
وحُكْمُ سليمانٍ وعدلُ أبي بكرِ
فتىً تهربُ الأموالُ من جُودِ كفّه
كما يهربُ الشيطانُ من آخرِ الحَشرِ

قال: وحضر أعرابيٌّ باب معنِ بن زائدةَ الشيبانيِّ، فلما جاء الإذن دخلَ عليه، ومعه ابنٌ له، فقالَ معنٌ: ما اسمُ ابنِكَ؟ فأنشأ يقول:

سَمَّيتُ مَعْناً بمَعْنٍ ثُم قلتُ له
سمىٌّ أمْرِ في الناسِ محمودِ
أنت الجوادُ ومنكَ الجودُ أولهُ
فإن هلكتَ فما جودٌ بموجودِ
أضْحَتْ يمينُكَ من جُوْدٍ مُصَوَّرَةً
لا بلْ يمينُك منها صُورَةُ الجودِ
لنورِ وجهِكَ تُمسي الأرضُ مشرقةً
ومن بنانِكَ يجري الماءُ في العودِ

قال: فأمرَ له بأربعةِ آلافِ دينارٍ، ثمَّ قال له: لو زدتنا يا أعرابيُّ زدناك، قال حسبنا وحسبك، ما قلتُ وسمعتَ، وكفاني ما أخذتُ.

قال: وكانَ أبو دُلَفٍ اتخذَ نَهَراً في قصرِه وكتبَ في كل زاويةٍ من زواياه بيتاً، فأولُ زاويةٍ منه مكتوبٌ فيها:

منزلُنا رحبٌ لمن زارنا
نحنُ سواءٌ فيه والطارقُ
غيرُ أهالينا وأولادِنا
فلم يُرَخِّصْ فيهمُ الخالقُ
ونشْتَري الحمدَ بأموالِنا
والحمدُ فيما بيننا نافقُ
لا نرهبُ الفاقةَ من ربِّنا
وربُّنا الواسعُ والرازقُ

قال: وقدمَ (الراعي) على خالدِ بن عبدِالله، ومعه ابنُه جندلٌ، وكان يغشاه مع ابنه، ثم فَقَده، فقال خالد: ما فعل ابنك؟ قال توفي -أصلحَ اللَّهُ الأميرَ- بعدما زوَّجته، وأصدقتُ عنهُ، فأمرَ خالدٌ بديةِ ابنِه، وصَداق أهل بيته، فقال الراعي:

وديتَ ابنَ راعي الإبلِ إذْ خانَ يومُه
وشَقَّ له قبراً بأرضِكَ لاحِدُ
وقدْ كانَ ماتَ الجودُ حينَ نعيتُه
وأذكيتُ نارَ الجودِ والنارُ خامِدُ
فما حَمَلَتْ أنثى ولا آبَ غائبٌ
ولا عاشَ ذو سُقْمٍ إذا ماتَ خالدُ

قـالَ: ودخلَ أعرابيٌّ على مَعْنِ بنِ زائـدةَ الشيبانيِّ فوقفَ بين يديّه، ثم أنشأ يقولُ:

أصْـلَحكَ الله قـلّ مـا بِيَـدِي
ولا أُطـيـقُ الـعـيـالَ إذا كَـثُروا
أَوْدَى بـهـم دهـرَهـم بِكَلْكَلِهِ
فـأرسَـلـوني إلـيـكَ وانـتـظَـروا

قـال: فأمرَ له بألفِ دينارٍ وجمل، قـال: فأخذ الأعرابيُّ وأرسلَ دموعَه، فقـال: ما يُبكيك؟ لعلّـكَ استقللتَ ما أعطيناك؟ قـال: لا، ولكنْ ذَكرتُ ما تأكلُ الأرضُ من كرمِك، ويُهالُ الترابُ على مثْلِكَ غداً، فذلك أبكاني، قال: زيدوه ألفَ دينارٍ، وجملاً آخرَ.

قـالَ: وجَـاء أعرابيٌّ إلى خالـدِ بنِ عبدِالله القسريِّ، فقـال: أَصْلَحَ اللَّهُ الأمـيرَ، إني امرؤٌ جئتُك ببيتين من الشّعرِ، فاسمعْهما، قال: هاتِ، فأنشأ يقولُ:

أخـالـدُ إني لَمْ أزرْكَ لحاجةٍ
سـوى أنـنـي عـافٍ وأنـتَ جـوادُ
أخالدُ بينَ الحمدِ والأجرِ حاجَتي
فـإنـهـمـا بـابـي وأنـــتَ عـمـادُ

فقـالَ خالدٌ: حاجُتكَ يـا أعرابيُّ قالَ: مئةُ ألفِ درهمٍ، قالَ قد أسرفتَ، قـالَ حططتُكَ تسعين ألفاً، فضحك خالدٌ، وقـال: واللهِ لا أدري أيَّ أمريكَ أعجـبُ؛ سؤالـكَ أم حطُّك؟ قـال: فقلت: كلاهما على قَـدْرِك، قال خالد: واللهِ لا يغلبني على معروفٍ أبداً، يا غلامُ أَعْطِه مئةَ ألفٍ.

الحكايةُ

حكي: أنه دخَلَ حمزةُ بنُ بيضٍ على مَخْلَدِ بنِ يزيدَ بن المهلّبِ، فقال له: ما وراءَك يا حمزةُ؟ قال: أصلحَ اللَّهُ الأميرَ، إني رأيتُ رؤيا، قال: هاتها على بركة الله، فأنشأ يقول:

رأيتُك في المنامِ صَبَبْتَ خزاً
عليَّ بنفسجاً وقضْيت دَيني
فَصَدِّقْ فدتكَ النفسُ رؤيا
رأتها في المنامِ كذاكَ عيني

فقال: يا غلامُ كم عندكَ من جبةِ خزٍّ بنفسج؟ قال: ثلاثون، قال: اكْسُها حمزةَ.

قال: كم دَيْنك؟ قال: عَشَرَةُ آلافِ درهمٍ، قال اقضُوها عنه، ثم قال: يا حمزةُ إياكَ أنْ ترى رؤيا مثلَ هذه.

obeikandl.com

البابُ السابعُ والعشرون

في حِلْمِ السادات، واحتمالِ الهفواتِ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾[1].

وقالَ الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[2].

وقالَ رسول الله ﷺ: «ليس الشديدُ بالصُّرْعَةِ، إنما الشديدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَه عندَ الغضبِ».

وقال سلمان لأمير المؤمنين علي بنِ أبي طالبٍ، ما الذي ينقذني من غضب الله؟ قال: تركُ غضبِكَ لله.

قال: وشتَم مروانُ الحسن بن علي بن أبي طالب، فلما أكثر قال: إني والله لا أمحو عنك شيئاً، ولكن موعودك بين يدي الله، فإن تك صادقاً فجزاك الله بصدقك، وإن كنت كاذباً فاللَّهُ أشدُّ نقمة.

قالَ: ودخلَ جعفر بنُ محمدِ بنِ الأشعثِ على الرشيد، وقد استخفَّه الغضبُ على رجلٍ، فقال: يا أميرَ المؤمنين إنك إنما تغضب لله، فلا تغضبْ له بأكثر مما غَضِبَ لنفسه، قال: فسكنَ غضبُه.

وقال أَكْثَمُ بنُ صيفيٍّ: الانقباضُ من الناسِ مَكْسَبةٌ للعداوة، وإفراطُ الأنس مَكْسَبةٌ لقرناءِ السُّوءِ.

---

(1) هود: الآية (75).

(2) آل عمران: الآية (134).

وقيـلَ للأحنفِ بنِ قيسٍ: ما أحلمكَ؟! قـال: تعلمتُه من قيسِ بنِ عاصمٍ المنقريِّ، بينا هو قاعدٌ بفِنائهِ، محتبٍ بكسائه، إذ أتته جماعةٌ فيهم مقتولٌ ومكتـوفٌ، فقيل: هـذا ابنُك قَتَلَه ابنُ أخيكَ، فواللّه ما حلَّ حَبْوَتَه حتى فَرَغَ مـن كلامِـه، ثم التفـتَ إلى ابنٍ لـه في المجلس، فقال: قـمْ فأطلقَ عن ابن عمِّك، ووارِ أخاك، واحمل إلى أمِّه مئةً من الإبل، فإنها غريبةٌ.

قـال: وكان (أنوشروانَ) دفَعَ ثلاثَ رِقاعٍ إلى خادمٍ، فأقامَه على رأسِه، وأمـرَهُ أن يدفـعَ إليه واحـدةً بعدَ واحـدةٍ إذا غَضِبَ، قـال: واشتدَّ غضبُه يوماً، فدفعَ إليه واحدةً فإذا فيها: أَمْسِكْ غضبَكَ فإنكَ لستَ بإلهٍ، ثمَّ دفعَ الثانيةَ، فإذا فيها: ارحمْ عبادَ اللّهِ يَرْحَمْكَ اللّهُ، ثم دفعَ إليه الثالثةَ، فإذا فيهـا: أَنْصِفْ عبادَ اللّهِ على حقِّ اللّهِ فإنهـم لا يسعُهم إلا ذلك، وقد ولّاك اللّهُ أمرهم.

وقـال: واشترى رجلٌ بالمدائـنِ عِدْلَ تِبْنٍ فمرَّ به سلمـانُ وهو أميرٌ بها فحبسـه علجٌ، فقال: ياكور تعالَ واحملْ هـذا، فحمله سلمانُ، وهو يمرُّ به، فجعـلَ النـاسُ يقولون أصلحَ اللّـهُ الأميرَ نحملُ عنكَ هـذا؟ فقالَ الرجل: ثكلتنـي أمي وعدمتنـي لم أَتَسَخَّـر إلا بالأمير، وجعلَ يعتـذرُ إليه، ويقول: لم أعرِفـك، فقال انطلِق، فذهبَ به إلى منزلـه، ثم قال: تفعلُ هذا بمَنْ لا تعرفُه؟ فعاهدَه ألّا يُسخَّرَ أحداً أبداً.

وقال (برويـز) لابنه: اجعلْ لاقتصـادِك سلطاناً علـى إفراطِك فإنكَ إذا قَـدَّرْتَ الأمور، وزنتَها بميـزان الحكمةِ، وقوّمتها بتقويم الثقات لم يكنْ للندامةِ على الحكمِ سبيلٌ ولا سلطانٌ.

قالَ: وكانَ قيسُ بنُ عاصم جالساً يوماً في بابِ دارِه، إذ أتته خادمةٌ بسَفُّودٍ عليه شِواءٌ، فسقطَ السَّفُّودُ من يدها على ابنٍ له، فعُقِرَ فماتَ، فدهِشَتِ الخادمةُ، فقال: قيسٌ لا يُسْكِنُ روعتَها إلا العِتْقُ، فقال: أنتِ حرةٌ، لا بأسَ عليك.

وقالَ معاويةُ للأحنفِ بنِ قيسٍ: ما لي لا أسألُ عنكَ أحداً من قومِك إلا اشتهى لكَ الشرَّ، ولا أسألُكَ عن أحدٍ من قومِكَ إلا اشتهيَت له الخيرَ؟ قالَ ذلك دأبي ودأبُهم، مذ كنتُ أمنحهم حلمي وأحمِلُ لهم جهلَهم.

وقال المنصور أميرُ المؤمنين: عقوبة الحكماءِ التعريضُ، وعقوبةُ الجهلاءِ التصريحُ.

وقال لقمانُ لابنه: يا بُنيَّ ثلاثةٌ لا تُعرفُ إلا في ثلاثةٍ: الحليمُ لا يُعرفُ إلا عندَ الغضبِ والشجاعُ لا يُعرف إلا عندَ الحربِ، والأخُ لا يُعرف إلا عندَ الحاجةِ.

الحكايةُ

حكي: أنه كان في سالف الدهر ملكٌ، وفي أهلِ مملكتِه عابدان، لا يأتيانه، فقال لهما يوماً ما يمنعكما أن تأتياني وأنتما عبدان من عبادي؟ فقالا إن صدقْتنا علمتَ أنا لسنا من عبيدِك، ولكنكَ عبدٌ لعبيدنا، قال: وكيف؟ قالا: هل عَلِمتَ قطُّ بأنا نعملُ شيئاً لغضَب أو هوىً؟ قال: لا، قالا: ألستَ تفعلُ أنتَ لذاتِك؟ قال: نعم، قالا: فإنا قد ملكناهما، وهما مَلَكَاكَ، فحينئذ أنتَ عبدٌ لعبيدنا.

obeikandl.com

البابُ الثامنُ والعشرون

في ذِكْرِ خُطَبِ الملوكِ عند الفتوحِ، وبلاغتهم مع الوضوحِ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[1].

قال الحسنُ البصريُّ: طلبتُ خطبةَ رسولِ الله ﷺ التي كان يخطب بها كل جُمُعةٍ، أربعَ سنين، فلم أقدرْ عليها، حتى بلغني أنها عندَ رجلٍ من الأنصار، فقلت له: أنتَ سمعتَ خُطبةَ النبيِّ ﷺ التي كان يخطب بها كل جمعة، قالَ: نعمْ، سمعتُه يقولُ: الحمدُ للّهِ ربِّ العالمينَ كثيراً، وصلواتُ اللّهِ على جميعِ الأنبياء والرسل، وعلينا معهم برحمته، أيُّها الناسُ؛ إنَّ لكم معلماً فانتهوا إلى مَعْلَمِكُم، وإنَّ لكمْ نهايةً فانتهوا إلى نهايتكم، فإن المرءَ بين مخافتين؛ بينَ أجلٍ قد مضى لا يدري ما اللّهُ صانعٌ فيه، وبينَ أملٍ قد بقيَ لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فليتزود العبدُ من نفْسِه لنفْسِه، ومن دنياه لآخرتِه، ومن حياتِهِ لموتِهِ، فإنَّ الدنيا خُلِقتْ لكم، وأنتم خُلقتمْ للآخرةِ، والذي نَفْسُ محمدٍ بيدهِ ما بعدَ الموتِ مُسْتَعْتَبٌ، ولا بعدَ الدنيا دارٌ إلا الجنة أو النار.

أقولُ قولي هذا، وأستغفرُ اللّهَ لي ولكم.

قال جابر: إن زاد زاد قليلاً وإن نقصَ نقصَ قليلاً.

(1) الأنبياء: الآيتان (106 - 107).

ولّما قُتِلَ مصعب بنُ الزبيرِ، وبلغ أخاه عبدَاللّٰه بنَ الزبيرِ، وهو بمكةَ، صَعَدَ المنبرَ فقال: الحمد للّٰهِ الذي له الخلق والأمرُ تؤتي الملك من تَشاء، وتَنْزِعُ الملكَ مِمَنْ تشاءُ وتعزُّ من تشاء، وتذِلُّ من تشاء، ألا وإنه لَم يذلِلِ اللّٰهُ من الحقُّ معه وإن كان فرداً، ولم يُعْزِزِ اللّٰهُ مَنْ أولياءُ الشيطانِ حزبُه، وإن كان الأنامُ معه طراً، ألا وإنه أتانا خبرٌ من العراقِ أجزعَنا وأفرحنا؛ قَتْلُ مصعبٍ رَحِمَه اللّٰهُ، فالذي أجزعنا من ذلك أن لفراقِ الحميمِ لوعةً، يجدها حميمُه عند المصيبةِ به، ثم يرعوي من بعدِها إلى جميلِ الصبر؛ وكريمِ العزاءِ، وأما الذي أفرحنا؛ فإنه قدَ عَلِمْنا أنَّ قتلَه شهادةٌ، وأنَّ القتلَ على ذلك لنا وله خِيرَةٌ، ألا وإنَّ أهل العراقِ -أهلَ الغدرِ والنفاقِ- أسلموه، وباعوه بأقلِّ ثمنٍ كانوا يجدونه.

إنَّا واللّٰهِ لا نَموتُ جنحاً، ولا نموتُ إلا طعناً بالرماح، وقتلاً تحت ظلال السيوف، لا كما يموتُ بنو مروان، ما قتل منهم رجلٌ في جاهليةٍ ولا في إسلام، وإنما الدنيا عاريةٌ من المَلِكِ الأعلى، الذي لا يزولُ سلطانه ولا يبيدُ، فإنْ تُقْبِلِ الدنيا علي فلا آخذُها أخذَ الأشِرِ البَطِرِ، وإنْ تُدبِر الدنيا لا أبكي عليها بكاءَ الحرف المهر، ثم نزل.

قال: ولما فتحَ يزيدُ بنُ المهلبِ الفتوحَ، صعَدَ المنبرَ، فحمِدَ اللّٰه، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد؛ فالحمدُ للّٰه الذي كفانا بالإسلامِ فَقْدَ ما سواه، وجعل الحمدَ متصلاً بنعمائه، وقضى ألّا ينقطعَ المزيدُ من فضلِه حتى ينقطعُ الشكرُ من خلقه، ثم إنّا وعدونّا على حالين مختلفين، فنرى فيهم ما يسرّنا أكثر مما يسؤنا، ويرون فينا ما يسؤهم أكثر مما يسرهم، فلم يزلِ اللّٰه يمُحِّصُنا ويمحقُهم، وينصرُنا ويخذلُهم، حتى بلغ بنا وبهم الكتابُ أجلَه، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[1].

(1) الأنعام: الآية (45).

الحكاية

حكـي: عن الشعبيِّ أنه قال: سمعتُ مـن عبدِالملك بنِ مروانَ كلمةً على المنبرِ، حسدتُه عليها سمعتُه يقولُ: اللهم إن ذنوبي كَثُرتْ وجلَّتْ عن الصفة اللهمّ إنها صغيرةٌ في جنبِ عفوكِ فاعفُ عني.

obeikandl.com

obeikandl.com

البابُ التاسعُ والعشرون

في أَدَبِ الكُتَّابِ، وما قيل في الخطِ والآدابِ

الأصل فيه قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾[1].

وقال النبيﷺ: «أدبني ربي، فأحسن تأديبي».

قال أبو سلمة: كان رسولُ الله ﷺ يكتبُ إلى الأمراءِ والملوكِ، فقال لي في كتابه: «إذا أبردتُم بريداً فاجعلوه حسنَ الاسمِ، حسنَ الوجهِ».

وقال عمرُ لابنهِ: عليك بالأدبِ، فإن أهلَه متبوعون، والناس تَبَعٌ تحتَ طاعتهم.

وقال الأحنف لابنه: يا بني كنْ أديباً لم تكن غريباً حيث ما وقعتَ.

وقال عبدُاللهِ بنُ المباركِ: أنفقتُ في العلمِ ستين ألفاً، وفي الأدبِ أربعين ألفاً، وودت أن ما أنفقتُ في العلمِ ستين ألفاً أنفقته في الأدب.

وقال ابن شبرمة إذا سرَّكَ أن تعظُم في عينِ مَنْ كنتَ في عينه صغيراً، أو يصغُر من كان في عينك عظيماً، فتَعَلَّمِ العربيةَ، فإنها تجُريك على المنطقِ، وتُدنيك من السلطان.

وقال عبدُالملكِ بنُ مروانَ: ما الناس إلى شيءٍ من الأدبِ بأحوجَ منهم إلى إقامةِ ألسنتهم، التي يتعاورون الكلام، ويتعاطون البيان، ويتهادُون

(1) الرحمن: الآيات (1 - 4).

الحِكَمَ ويستخرجون غوامضَ العِلمِ من مخابئها، ويجمعون ما تفرق منها، وإن الكلام قاضٍ يحكمُ بين الخصوم؛ وضياء تجلو به الظُّلَم، وحاجة الناسِ إلى الأدبِ كحاجتِهم إلى موادِّ الأغذيةِ.

وقال (بُزرجمهر) لا يستطاعُ التأديبُ [إلا] بمجانبةِ الغضبِ، وتركِ العَجَلة والقلقِ.

وقال هشامُ بنُ عبدِالملكِ بنِ مروانَ لبنيه: تعلموا الأدبَ فإنَّ وراثتي إياكم الأدبَ أحبُّ إلي من وراثتي إياكم المالَ، فإنَّ المالَ غادٍ ورائحٌ، وإنَّ العلمَ والأدبَ باقيان، وإنَّ العلمَ زينٌ والجهلَ شَينٌ، تعلموا القرآن [والنحوَ، فإن القرآنَ بلا نحوٍ كالجسدِ بلا رأسٍ]، تعلموا من الشعرِ أفصَحَه وأعفَّه، ومن السمُوِّ أغلَبه وأغربه.

تعلموا النسب حتى كأنكم تَقْرَؤونه وادخروا منِ الحديثِ ما كان مُسْنداً عن رسول الله ﷺ، وإياكم أن تُجمِّعوا تجميعَ حاطبٍ، فتشكوا في الخالقِ والمخلوقِ، ولا تجالسوا السفهاءَ ولا تمازحوهم، وإياكم وأصحابَ الكلامِ، فإنه لا يؤول إلى الرشادِ أمرهُم، ولا تَصْطَبِحُوا بالنوم، فإنه شؤمٌ ونكدٌ، وأنشأ في ذلك يقول:

العِلمُ زينٌ وتشريفٌ لصاحبِهِ
فاطلبْ هُديتَ فنونَ العلمِ والأدَبا
لا خيرَ فيمنَ له أصلٌ بلا أدبٍ
حتى يكونَ على ما رابهَ حَدِبا
كمْ من حسيبٍ أخي عيٍّ وطَمْطَمَةٍ
فَدْمٍ لدى القومِ معروفٍ إذا نسبا

في بيتِ مَكْرُمَةٍ آباؤُهُ نُجبٌ كانوا
رؤوساً وأمسى بعدَهم ذَنَبا
وخاملٍ مُقْرِفِ الآباءِ ذي أدبٍ
نالَ العلوَّ ونالَ المالَ والنَّشَبا
أمسى عزيزاً عظيمَ المُلكِ مُشْتَهِراً
في خده صعر قد ظلَّ محتجبا
العِلْمُ فَضْلٌ كنزٌ لا نفاد له
نِعْمَ الضجيع إذا ما عاقلا صحبا
قد يجمعُ المرءُ مالاً ثم يُسْلَبُهُ
عما قليل فيبقى الذل والحَرَبا
وجامعُ العلمِ مغبوطٌ به أبداً
ولا يحاذر لا فوتاً ولا سلبا
يا جامعَ العِلْمِ نِعْمَ الذُّخْرُ تجمعهُ
لا تعدلن به داراً ولا ذهبا

وقال ابن سيرين: ما رأيتُ على رجلٍ أحسنَ من فصاحةٍ، ولا على امرأةٍ أحسنَ من شَحْمٍ.

وكان يُقالُ: أربعةٌ يَسود بها السيِّدُ: العِلمُ، والأدبُ، والفقْهُ، والأمانةُ.

وقال (أفلاطون): ليس كلُّ إنسانٍ إنساناً إلا مَن كان في أدِبه وعلمِه إنساناً.

وقال (سقراط): العلمُ والأدبُ ينبغي أن يُشترَى بكلِّ شيءٍ ويُجعل كلُّ شيءٍ له فداءً.

وقال مَسْلَمَةُ بنُ عبدالملكِ: اللحنُ في الكلامِ أقبحُ من الجُدريِّ على الوجهِ.

الحكايةُ

حكي: أن الحجاجَ بنُ يوسفَ كان له صديقٌ، يُسمَّى مُرَّةَ، وكان جالساً، عنده فجاء الحاجبُ، فقال: أصلحَ اللَّهُ الأميرَ، فلانٌ الكاتبُ في البابِ، فقال: ائذنْ له، فقال الرجلُ: الكُتَّابُ شرُّ الناسِ، فدخلَ الكاتبُ، فرحبَ به، وأدْنَى مجلسه، وقَضى حاجتَه، فلما خرجَ، قال لصديقه: كيفَ قلتَ الكُتّابُ شرُّ الناسِ؟ واللهِ لولا الرحمُ والصحبةُ لأحسنتُ أدبَك، يقول اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾[1].

وقالَ بعضُ الشعراءِ في هذا المعنى:

وقد عيروني الخطَّ واللَّهُ منزلٌ

فضيلَته تبّاً لهمْ ولرأيهم

يقولُ كراماً كاتبين مَديحُهم

ومدحُ إلهِ العرش خيرُ جزائهم

وقال (جالينوس): الخطُ أدبٌ، والعلمُ طبيبُ المنطقِ.

وقال آخرُ: القلم شجرٌ والكتابةُ زهرٌ والقراءةُ ثمرٌ.

وقال الآخرُ: الأقلامُ مطايا الفَطِن والكتابةُ سُرُجٌ على المطايا، والقراءةُ سَيرٌ جميلٌ وإذا بكتِ الأقلامُ تبسمَّتِ الكتُبُ.

---

(1) الانفطار: الآية (11).

وقال عبدُاللهِ بنُ المقفّعِ: القلمُ بريدُ القلبِ، يُخبر عن الفِكرِ ويَفحصُ عن خفيِّ النظرِ.

وقال الشاعر:

من كانَ يعجُبه مِنْ مسكٍ عارضهِ

مسكٌ يُطَيَّبُ منه الريحُ والنسما

فإنَّ مِسْكي مدادٌ فوقَ أُنْملتي

إذا الأصابعُ مني مَسَّتِ القلما

oberikandl.com

obeikandl.com

البابُ الثلاثون

في حُسنِ المؤازرةِ، وإتقانِ سرِّ المشاورة، وكيفيّة سيرةِ الوزيرِ وما يجبُ عليه من الترتيبِ والتدبيرِ

ولنذكرْ في هذا البابِ جملةً كثيرةً من الأسبابِ والآداب، بحيثُ يصيرُ حَجْمهُ كحجم كتابٍ واللَّهُ الموفقُ للصوابِ.

قال الله تعالى حكايةً عن دعاء موسى: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝٢٦ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝٢٨ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي ۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۝٣٢﴾[1]، ثمَّ قال في نظام هذه الآية: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ۝٣٦﴾[2].

وعن رسولِ اللَّهِ ﷺ: «إذا أرادَ اللَّهُ بمَلِكٍ خيراً جعل له وزيراً صالحاً، إنْ نَسِيَ ذكَّره وإنْ ذَكَرَ أعانه».

وقال عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ: نِعْمَ المؤازةُ المشاورةُ، وبئسَ الاستعدادُ الاستبدادُ.

وقال حكيم من الحكماءِ: إنَّ الوزيرَ للملكِ كالرُّوحِ في الجسدِ، فالجسدُ ضائعٌ إذا لم يكنْ فيه الروحُ، والروحُ ضائعة إذا لم تكن في جسدٍ، فكذلك

(1) طه: الآيات (25 - 32).

(2) طه: الآية (36).

المَلِك ضائعٌ إذا لم يكنْ له وزيرٌ يرشدهُ، حين يسترشده الملِكُ، ويشير عليه حين يستشيره، ولا بقاء لواحدٍ دونَ الآخَرِ، ونحن نذكرُ في هذا البابِ جملةً كبيرة تُؤْذِنُ بخلاصةِ اللبابِ تيسيراً للطلابِ.

فنقول: قد شرّف الله عزَّ اسمه الوزارةَ، وعظَّم خَطَرَها، وحسَّنَ أثرها وجعلها سمعَ الملِكِ الذي هو خليفة الله في أرضه، واليدَ المبسوطة على خلقه، فالوزارة: اسمٌ جامعٌ للمحاسنِ، ناظمٌ لعقودِ المعالي والمكارمِ، ثم محلُّ كلِّ وزيرٍ على قَدْرِ الخطرِ من مستوزِرِه، فكلما كانَ الملِكُ أرفعَ شأناً وأعظمَ سلطاناً كانَ وزيرُه أجمعَ لأسبابِ الفضلِ، وأنْصَبَ لأعلامِ المجدِ، وعمدةُ هذا أنَّ الأنبياءَ الذين أكرمهمُ اللَّهُ بوحيه، وأيدهم بهديه، لم يستغنوا عن الوزراء؛ فضلاً عن الملوكِ والأمراء، وقد ذكرنا حكايةَ موسى، وقد كان (آصفُ بن برخيا) وزيرَ سليمانَ بن داودَ عليهما السلامُ والمستولي على أمورِه، وإن كان السلفُ لم يطلقوا لفظَ الوزارةِ على أبي بكر وعمرَ ﷺ كل الإطلاقِ رفعاً للنبي ﷺ، وتنزيهاً له على المُلْكِ الذي تقترن به الوزارة، وقد كانا في الحقيقةِ وزِيْرَيْهِ.

روِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إن لي وزيرَيْنِ في السماءِ، ووزيرَيْنِ في الأرضِ، فاللذانِ في السماءِ جبريلُ وميكائيلُ، واللذانِ في الأرض: أبو بكرٍ وعمرُ»، وقد شهِد لهما بالوزارةِ زيدُ بنُ عليِّ بنِ الحسينِ عليهم السلامُ، حين قال له أصحابُه من المتشيعةِ: إن كنتَ تريدُ أن نبايعَك فالعنْ أبا بكر وعمرَ، فقالَ: واللهِ ما كنتُ لألعنَ وزيرَيْ جَدي، فرفضوه فسُمُّوا: الرافضةَ.

ودعا بعضُ الخلفاءِ مَخْلَدَ بنَ الحسينِ يستشيره في بعضِ أموره، فلما فَرَغَ منها قال: يا مَخْلَدُ ألا تأتينا فتعيننا على هذا الأمرِ؟ فما رأيتُ أعقلَ

منـك، فلـو أتيتنا استفدْنـا منك، واستفدت منـا، قال: يا أمـيرَ المؤمنين؛ ومـا كنتَ تستفيدُ مني؟ قال: العلمَ والأدبَ، قـال: وما أستفيدُ منك؟ قال: الدنيـا. قـال مخْلَدٌ: إني لا أبيعُ دينـي بدنياك، ولكنّ يا أمـيرَ المؤمنين: بم استدللـتَ على عقلي، قال: بالصيانةِ والديانـةِ والأمانةِ، قال: فلا تسألني شيئاً أحببتني عليه، إني إذاً لو فعلتُ ذلك ذهبَ كلُّه مني، قال: يا مخْلَدَ ما كنتُ رأيتُ قطُّ أعقلَ منكَ الساعةَ.

قـال: وسأل أبو جعفـرٍ أميرُ المؤمنين إسماعيلَ بـنَ عبدِاللّه: من ينبغي للملكِ أنْ يتخَذه وزيراً؟ قال: أسلمُهم قلباً وأبعدُهم عن الهوى.

وكان (أنوشـروان) يقـول: لا يستغنـي أجودُ السيوفِ عـن الصقلِ، ولا أكرمُ الدوابِّ عن السوطِ، ولا أعلمُ الملوك عن الوزير.

ولمكانـة الـوزراءِ لدى الأمـراءِ والملـوكِ ومشاركتِهم إياهـم في الأمورِ، وتصريفِ أعنّةِ التدبيرِ ما قد جرى في المثلِ السائرِ: لا تغترنَّ بكرامةِ الأمير إذا شكَّ الوزيرُ.

وقـد أشـارَ إلى هذا المعنى أبـو الفضلِ بنُ العميـدِ، وزادَ فيه حيث قالَ لصديقٍ له من العلويين، كان مختصاً بركن الدولة:

وزعمتَ أنكَ لستَ تَحْفرُ بعدما
علقتْ يـداك بـذمـةِ الأمـراءِ
هيهاتَ لم تَصْدُقْكَ فكرتُك التي
قـد أوهمتـك غنـى عـنِ الـوزراءِ
لم تُغْـنِ عن أحدٍ سَماءٌ لم تجد
أرضـاً، ولا أرضٌ بغير سماء

وفي المثل: إذا طلبتَ نائلَ الأمير فألْطِفْ له من جهةِ الوزيرِ.

ولما سُعي بأحمدَ بن الطيّبِ السَّرخسيِّ إلى المعتضدِ بالقاسم بنِ عبيدِ اللهِ قال له المعتضد: يا سَرخسيُّ لا تلعبْ بوزيري وظهيري، ومَنْ قلمُه نَاسِجُ وَشْيِ مملكتي، وناظمُ عقدِ دولتي، وهو في الاختصاصِ بي قطعةٌ مِنِّي.

وقال الفتحُ البُسْتي الكاتبُ يوماً: لم أعلمْ أن أبا إسحاقَ الصابيَّ أكتبَ الناسِ وأبلغَهم -ولولا الديانةُ لقلتُ أعقلَهم- حتى عَثرت على فَصْلٍ له: في حكمةِ اللهِ تعالى ذِكْره في اختلافِ طبقاتِ الناسِ، وافتقارهم إلى الملوك والوزراء، وحاجةِ بعضِهم إلى بعضٍ، واطِّرادِ أمر العالم بهذا التدبير، فكِدْتُ أَحنُّ عليه، وعجبت من حَسدي له، فقال له الكاتب: وما ذاك؟ فقال: هو قوله: من حيثُ خولف بين الناس كلَّ الخلاف، وائتلفوا كلَّ الائتلافِ، فصارت لكلِّ طبقةٍ من طبقاتهم منزلةٌ يقفُ عندها، وصناعةٌ ينتحلها، فسدُّوا الخلل، وعدلوا المثل، وترادفت أيديهم، وتعاونوا على معايشهم ومساعيهم، وتساووا مع تباينِ تلك المنازل بهم في منزلة القصور والفاقة، ولَجَؤُوا إلى ظل المسالمةِ والموادعةَ، وذَلَّ الأخفضُ للأعلى، طلباً لما في يده وحنى الأعلى على الأخفضِ ضرورةً إلى خدمته، واقتضى ذلك أن يكونَ فيهم ملوكٌ تحمي الدنيا، وسُوقَةٌ يلتئِمُ بهم الشملُ، فاستقرتْ كلُّ فِرقةٍ بمكانها واشتغلتْ بشأنِها؛ فالملوكُ في الأمرِ والنهيِ والحماية والذَّبِّ، والوزراءُ في التدبيرِ، وجمع الفيء، والكُتَّابُ في حفظ الدواوينِ، وتسديدِ المكاتبات، والعمالُ في عمارةِ البلادِ واستدرار الارتفاعِ، والجندُ في سدِّ الثغورِ وجهادِ العدوِ، والقضاةُ في إقامةِ ميزانِ القسطِ وتنقيةِ أحكامِ الدينِ، والتجّارُ في التجهيزِ والطلبِ، والعوامُّ في المهنِ والحرَفِ، ولم يزل كلٌّ مُنهم مستغنياً بغيره، فقيراً إلى من سواه، صُعوداً من أذنابهم إلى

أعلاهم، وانحطاطاً من أعلاهم إلى أدناهم، حتى اطَّرد هذا العالمُ على ما هو عليه من ارتباط أبعاضه وأجزائه، وأحكام وضْعِهِ وبنائه، وهنالك بيانُ أنَّ رحمةَ اللّٰهِ في هذا التقديرِ الحكيمِ، والتدبيرِ المستقيمِ، نزلتْ على سبيلِ العمومِ، ووصلتْ إلى الجمهورِ.

وفي كتابِ الوزراءِ لابن عبدوس، عن موسى بنِ عبدِالملكِ، أنه قال: فرَّقَ الفضلُ بنُ سهلٍ عيوناً له من نصحائه في البلدانِ، يسألون عن عيوبه فعادَ إليه واحدٌ منهم فأخبرَه: أن وفداً وفدوا على المأمونِ، فلما فصلوا قالوا: ما رأينا مِثْلَ هذا الملكِ جلالةً وعقلاً، ولا مِثْلَ وزيرِه كِفايةً وفضلاً، لولا أنه شابٌّ، ومن شأنِ الملوكِ أن يستوزروا المشايخَ الذين اجتمعتْ لهم العلوم تجربةً إلى الرياسة حيلة، فاحتجبَ الفضلُ ثلاثةَ أيامٍ يعالجُ لحيته، ثم ظهرَ للناسِ وهي بيضاء.

obeikandl.com

وصفُ الوزيرِ الصالحِ الكافي الناصحِ

اجتمعتِ الآراءُ على أنه ينبغي أنْ يكونَ وزيرُ الملكِ مِمنْ يجمعُ بينَ الأصلِ والفضلِ، والقولِ والفصلِ، والأدبِ الجزلِ، والرأيِ الثاقبِ، والتدبيرِ الصائبِ، ويرجعُ إلى نفسٍ أمارةٍ بالخيرِ، بعيدةٍ عن الشرِ، مدلولة على سبيلِ البرِ، ويجمعُ أدواتِ السيادةِ، والأدبِ والرياسةِ، بمحبة يطبق بها قلوبُ العامّةِ بعدَ الخاصةِ ويمُضي أيامَه بينَ نصحٍ يُؤثّرهُ وجميلٍ يؤثّره، وجدٍّ في مصلحةِ المملكةِ يستعمله، وجُهدٍ في التقربِ إلى سلطانه يتحمّله، ويخلصُ على النقدِ والتمييزِ خلوصَ الذهبِ الإبريز، فإذا اجتمعَ الملكُ الفاضلُ، والوزيرُ الصالحُ الناصح، فأحرَى بالمملكةِ أنْ تكونَ ساكنةً هاديةً، وأعمالها وأحوالها على النظامِ جاريةً، والرسومُ الجميلةِ راتبةً، وطرُقُ التجاراتِ آمنةً، والأسفارُ منحطةً، وثغورُ الخيراتِ مبتسمةً، ونفوسُ الرعايا في ظلالِ السكون وادعةً، وفي رياضِ الأمنِ راتعةً.

وعُمدةُ الأمراءِ في الوزارةِ أن يُستَوْزَرَ الشريفُ المذكورُ، ولا يؤهَّلَ لها الوَضيعُ المجهولُ، كما فَعلَ غيرُ واحدٍ من الملوُك، فخانوا ملكَهم، وأراقوا دِماءَ دولتِهم، وهدموا ركنَ سياستهم، ومنهم عزُّ الدولةِ (بَخْتيارُ) فإنه بسوء الاختيار استوزرَ صاحبَ مطبخِه أبا طاهرٍ؛ محمدَ بنَ بقيةَ، وكان إلى اليومِ الذي خُلعَ فيه عليه يُقدّم إليه الطعامَ، ويحمل إليه الغضائر بيده، ويتمسح بمناديل الغمر، ويذوق الألوانَ عندَ تقديمه إياها، كما يفعلُ مَنْ يتقلّدُ المطبخَ، ولما استوزرَ عادَ يريدُ الخدمةَ في ذلك، فنهاه (بختيارُ) وتعجّبَ الناسُ من ذلك، وقال قائلهم: من الغَضارة إلى الوزراة، ولم تكنْ

عينُه تقـعُ إلا على مَنْ فوقَه من أصاغرِ الناسِ، وأما أكابِرُهم وأوساطهم فلم يكن ممنْ يكلمونه، وزادت به دولةُ (بختيار) إخلاقاً وعاراً، وتضاحكَ الناسُ به قرباً وبعداً، وكانَ كلٌّ منهما سبباً لهلاكِ صاحبهِ.

obeikandl.com

فصل
فيما يُوجِبُه حُكْمُ السياسةِ من الاقتصارِ على وزيرٍ واحدٍ

قد جرتْ عادةُ بعضِ الملوكِ باستوزار الاثنين فصاعداً، والجمعِ بينهما في زمانٍ واحد، وذلك خَطَلٌ من الرأي، وخطأ من التدبير، وفيه خطر على المملكة، إذ لا يسع السيفين غِمْدٌ، وكَثرةُ الأيدي في الصلاحِ فسادٌ.

وفي أمثال العامة «مِنْ كثرةِ الملاحينَ غرقَتِ السفينةُ»، وإذا كانتْ لِلدار رتبان بقيتْ غيرَ مكنوسة، وأجلُّ الأقوالِ وأحسنُها وأصدقُها، قول الله تعالى، في محكم كتابه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]، وإذا كانتِ الوزارةُ شَرِكةَ الملكِ فكما لا يَصْلحُ ملكانِ في مملكة واحدة، لا يصلح وزيران في دولة، وكانَ الخلفاءُ من بني العباسِ على اتساعِ ملكِهم، وانتظامِ الشرقِ والغربِ في عقدةِ سلطانِهم، لا يَسْتوزِرون إلا واحداً، على ما تَنْطِقُ به كتبُ أخبارِهم، إلى أن كانتْ أواخرُ أيامِ المقتدرِ، فمرضت الدولةُ وضعفتِ السياسةُ وتشعّرتِ المملكةُ، وصُرِفَ عليُّ بنُ عيسى عن وزارةِ السلطانِ، على فضلِه وعدلِه، وسداده وحزمه، بحامدِ بنِ العباسِ على تخلّفِه ونقصِه، ثم لم يُستَغْنَ عن عليٍّ لتقدمه في الكفاية، واستقلاله بما يعجز عنه غيرُه من أعمالِ الوزارة، فضموه إلى حامدٍ وجُعلتْ إليه دواوينُ، فكانا يتشاركان في الوزارة، وأغلب الاسم لحامدٍ وأكثرُ العلمِ لعليّ، حتى قال فيهما ابن بسام:

---

(1) الأنبياء: الآية (22).

فَقِدتُكم يا بني الجاحِدْة
ففي كلّ يومٍ لكمُ آبدةْ
متى كان يُعرفُ فيما مضىَ
وزيران في دولةٍ واحدةْ

وقال غيرُه فيهما:

أعجبُ منْ كلّ ما تراهُ
أن وزيرين في بلاد
فهذا سوادٌ بلا وزير
وذا وزيرٌ بلا سَواد

ولما توفي الصاحبُ بن عبادٍ سَدَّ فخرُ الملكِ مكانه من الوزارة، بأبي العباس أحمدَ بنِ إبراهيمَ الضبيّ، وأبي عليٍّ الحسنِ بنِ أحمدَ بن إبراهيم الضبي، وأبي علي الحسنَ بنِ أحمدَ، وجعلهما شريكين في الوزارةِ، فظهر العُوار، واستمر العِثار، وكان يخاطبُ أبا العباسِ بالأستاذِ الرئيسِ، وأبا علي بالأستاذِ فقال هِبَةُ اللهِ بنُ المنجم:

واللهِ واللهِ لا أفلحتمُ أبداً
بعدَ الوزيرِ ابنِ عبادِ ابنِ عباسِ
إنْ جاءَ منكم وزيرٌ فاقطعوا أزري
أو جاءَ منكمْ رئيسٌ فاقطعوا راسي

فصل

في أنَّ الملوكَ ربما يَكرهون مَنْ يشارِكُهم في العزِّ، ويبسطُ في الأمرِ والنهيِ، ويستبدُّ دونَهم بمعاظم الشؤون

من أخلاقِ الملوكِ أبادة المالِ والجاه، وعزِّ الأمر والنهي، وثمرات الدنيا كلِّها، يختارون لأنفسِهم، ويكرهون من يشاركهم في سرور السياسة، ويستبدُّ دونهم بالحلِّ والعَقْد، وتخدِمُه الناسُ، ومن تَتعلقُ به الآمالُ، ولو كانَ من صنائِعهم، وغروس أيديهم، ومن ههنا أُتي أبو أيوب المرزباني، وزيرُ المنصورِ حين أخبرَ المنصورَ بعضُ رسلِه إليه، بأنه وجدَ عنده الحسَن بن قحطبة، وجذيمةَ بن حازم قاعدَيْنِ بينَ يديه فدعاه ووبّخَه، وقال له: بلغَ من عُلوِّ شأنك وعظمتِك؛ أن تنظرَ إلى مَنْ أعددتهم لدولتي، مَنْ إذا انْفَتَقَتْ عليَّ ناحية رَتَقْتُها بهم فتدنهم وتجلسهم بين يديك، واللّه ما أمِنْتَ في مجلسك إلا بهم، ولا نفدت أقلامك إلا بأسيافهم فنكبَه بعد أيام قلائل، وقال فيه الشاعر:

قد رأينا الملوكَ تحسدُ
من أعطَتْهُ طوعاً أَعِنَّةَ التدبير
فإذا ما رأوا له النهي والأمر
أَوْلُوهُمُ من عَرْفَةِ التنكيرِ

ولم يكنْ سببُ استئصالِ الرشيدِ البرامكةَ، إلا ما رآه من ارتفاع مقادِيرهم، وعلوّ شأنهم، ونفاذ أمرهم، وبسط أيديهم في الأعمال والأموال، وخروجهم في الجود من الحدود، وهكذا كانتْ حال الفضلِ بن سَهْلٍ ذي الرياستين، فإن أمورَ المأمونِ كلَّها كانتْ إليه، والمأمونُ كالخالي منها، إلى أن ضَجِرَ منه ففعلَ ما فعل.

obeikandl.com

فَصْلٌ

في كلامِ الوزراءِ في أسرارِ الملوكِ والوزارةِ

كانَ الربيعُ بنُ يونسَ يقولُ: من كلَّم الملوكَ في الحاجاتِ في غير أوقاتِ الكلام، لم يظفرْ ببغيتهِ، وضاع كلامُه.

وما أشبه الحالَ في ذلك إلا بأوقاتِ الصلاةِ، فإن الصلاةَ لا تُقبل إلا فيها، فَمَنْ أرادَ خطابَ الملكِ في حاجته، فليترصدِ الوقتَ المنجح، الذي يصلُحُ في مثلِه ذِكْرُ ما أرادَ، ليحصَلَ على النجْح، وإلا فلا.

وكان يحيى بنُ خالدٍ يقول: عجبتُ للمَلِكَ كيفَ يحسنُ وهو لا يسيء، إلاّ ويجد مَنْ يحسنُ إساءتهَ إليه!!

وكان الفضلُ بنُ سهلٍ يقول: من أحبَّ المزيدَ من النعم، فليشكرْ، ومَنْ أحبَّ المنزلةَ عند سلطانه فليكفه، ومن أحبَّ السلامةَ فليلزمِ الحذرَ.

وكان أخوه الحسنُ يقولُ: لا يصلح أن يكونَ الصَّدْر إلا واسعَ الصدرِ.

ولما أمرَ المعتصمُ القُوَّادَ والأشرافَ بالترجلِ (لأشناسَ) والمشيِ بين يديه، كان فيهم الحسنُ بنُ سهلٍ، فبينما هو يمشي إذْ انكسع فالتَفَتَ إلى حاجبه، وهو يبكي فقالَ له ما يبكيك يا بني؟ قال: يا مولايَ عهدي بكَ في أيام المأمون والناس قد ترجلوا لك، ومشوا بين يديك، وأراك اليوم تمشي بينَ يديّ هذا، فقال: يا بنيَّ ذاك يومٌ أرادَ السلطانُ أن يشرفَنا، وهذا يومٌ يريدُ أن يُشرِّفَ بنا.

ولما أراد المأمون أن يستوزِر أحمدَ بن أبي خالدٍ، قال له: يا أميرَ المؤمنين، إن الوزارةَ غايةُ الغاياتِ، فدعني ليكونَ بيني وبينها منزلةٌ، يرجوها الصديقُ، ويخافها العدو.

ولما عزلَ المأمونُ وزيرَه أبا عباد، قال: واللهِ ما رأيتُ يوماً أشبهَ بيومِ القيامةِ من يومي هذا، لأني أرى قوماً أحسنتُ بهم، فأودُّ لو كنتُ زدتهم، وأرى آخرين أسأتُ إليهمْ فأودُّ أني لم أفعلْ.

وكانَ يقولُ: وزيرُ السلطانِ كراكبِ الأسدِ، يهابه الناسُ وهو لمركبِه أهْيبُ.

وكان الفضلُ بنُ مروانَ، يقول: الملكُ عقيمٌ، ولا أرحامَ بين الملوك وبين أحد، ومَنْ بالغَ جهدَه في مناصحة السلطان اتهمه، ومن عرفَ منه مذهباً في دينه يخالف مذهبه، غيّره به، ورصده بالعقابِ عليه، وما رأيتُ أقربَ رضا من سخطٍ، ولا أسرعَ ما بين قُربٍ وبُعْدٍ، من الملوك.

وعاتبَ المتوكلُ وزيرَه محمدَ بنَ الفضلِ الجرجانيَّ، على اشتغاله بالملاهي، والقيان، عن أعمال السلطان، فقالَ: يا أميرَ المؤمنين: إني ربما أستعينُ بالهزلِ على الجد، لأنَ مقاساةَ عمومِ أهلِ المشرقِ والمغربِ، لا يتأتى إلا باستجلابِ شيءٍ من السرورِ، فقال: صدقتَ وعذَرَه.

وكانَ عبيدُ اللهِ بنُ يحيى بنِ خاقانَ يقول: إذا دهانا أمرٌ تَمَثَّلناه في أصعبِ حالاتهِ فما نقص منه كان سروراً نتعجله.

وكان أحمدُ بنُ إسرائيلَ وزير المعتزِّ قبل تقلّده الوزارةِ يذمُّها ويَتَكرَّهها، ثم تقلّدها برغبةٍ شديدةٍ، فقيل له في ذلك؛ فقال: هي واللهِ مركبٌ شريفٌ، شهيٌّ لذيذٌ، لا تطيبُ النفسُ بتركهِ على ما فيه من الخطر.

وكانَ الحسنُ بنَ مَخلَدٍ يقـول: لو نصبَ السلطانُ قصبة لَنفَدَتْ أمورُه إذا لم يكنْ لها معارضٌ، وكان أسنى الوزراءِ مُروءةً وتحملاً، وآلاتٍ ومنزلاً، وكان يقـول: أمرُ أمثالِها يجيءُ جملة، ويذهب جملة، فلمَ لا نتعجلُ اللذاتِ قبل فوتها، ونتمتعُ بصفوِ الزمانِ قبل كَدرَه.

وجَمَعَـه وسعيـدَ بنَ حُميدٍ مجلسٌ فأربى عليه سعيـدٌ في المحاضرةِ في الأخبـارِ والأشعـارِ، والنُّتف والمُلَحِ حتى قال له: يا أبا عثمانَ لو بليت بحفظ الدنيا ناحيةً ناحيةً، وتبلغ خراجَها كورةً كورةً لمنعك ما أنت فيه، وأشد منه لو شرعتَ في كلامِ خليفةٍ وأنتَ لا تقفُ على ما في نفسِه، حتى إذا توسطته بـان لك ما في ضميرِه فأردتَ نقلَ الـكلامِ إلى ضدِّ ما كنتَ فيه، لعلمتَ أن هـذه صناعةٌ تَضيعُ فيها العقـولُ، فقال: صدقتَ يا سيـدي، إن القليل من الأكثرِ مما نحن فيه.

وكانَ العباسُ بنُ سهلٍ يقول: مَثَلُ المتصرِّفِ كمَثلِ الخياطِ، يقطعُ يوماً ديباجاً نسيجاً بألفِ دينار، ويوماً قوهياً بعشرين درهماً.

وكانَ أبـو الحسن بنُ الوراقِ يقول: ما رأيتُ أحداً على بابي، وفي داري، ليـس لي عنده إحسـانٌ إلا استحييت منـه، وصَرَفتُ عنايتـي إلى إرفاقِهِ، وتحصيـل مُراده، ولولا حبُّ المُروءة ما رغبتُ في الرياسة والوزارة. وعُوتب على تقليده قضاءَ البصرةِ من لا يصلُحُ له، فقال: فلم هُنِّئتُ بالوزارة؟

وكان أبـو محمدٍ المهلبيُّ يقول: مـن تعرّضَ للمصاعبِ تثبّتَ للمصائبِ، ومن كلامِه: التصرّفُ أسنى وأعلى، والتعطلُ أعفى وأصفى.

وكان أبـو علـي يقول: أنا في وزارتـي أُقدِمُ على العظائـم كلِّها، إلا على اثنين؛ إزالةِ النِّعَمِ وهَتْكِ الحُرَم.

وكان أبو محمد عبدُاللهِ بنُ محمدٍ يقول: الهديةُ تردُّ بلاءَ الآخرةَ.

وكان ابنُ عبادٍ يقول: مرضاةُ السلطانِ لا تغلو بشيءٍ من الأثمان.

قال: واستشارَ بعضُ ملوكِ العجمِ وزراءَه، فقال أحدهم: لا ينبغي للملكِ أنْ يستشير منا أحداً إلا خالياً به، فإنه أَمْوَتُ للسرِّ وأحزمُ للرأيِ، وأجْدَرُ بالسلامة، وأعفُّ لبعضنا من غائلةِ بعضٍ، لأن إفشاءَ السرِّ إلى رجلٍ واحدٍ أوثقُ من إفشائه إلى العامّة، لأن الواحدَ رهنٌ بما أفشى، والثاني يُطْلِقُ عنه ذلك الرهن، والثالث علاه فيه، فإذا كانَ سِرُّ الرجلِ عند واحدٍ كان أحرى ألاّ يُظهِره، رهبةً منه، ورغبةً إليه، وإذا كان عندَ اثنين دخلَ على الملك الشبهةُ والتشعبُ على الرجلين، للمعارضة، فإنّ عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد، وإن اتهمهما اتهم بريئاً بخيانةِ مجرمٍ، وإن عفا عنهما كان العفوُ عن أحدهما، ولا ذنب له، والآخر ولا حجة عليه، وكان يقال: إنما قيل: لمدبر الأمورِ عن الملكِ وزيراً من الوِزْر، وهو الحِمْل يُرادُ أنّه يَحْمِلُ عنه من الأمورِ. قال جلَّ ذكره: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾[1] أي: حَطَطْنا عنك حِملك.

(1) الانشراح: الآية (2).

فَصْلٌ

فيما ينبغي للوزيرِ أن يأتيَه ويذرَه

اعلـمْ أن الملوكَ لا يشبهون الآدميين إلا بالصورِ، فأما الطباعُ والأخلاقُ والهِمَمُ فإنهـم لا يُشاكِلُونهم، ولا يشابهونهم، والملِكُ وإن كانَ كريماً سخياً بعيـد الهمَّةِ كثـيرَ المحاسنِ، فإنه لا يخلـو قطُّ من أربعِ خصـالٍ: الحسدِ، والحقـدِ، والمـلالِ، والحرصِ على المـال، فينبغـي أن يكونَ الوزيـرُ أعقلَ الناسِ، وأحزمَهم وأهداهم، وأبعدَهم غوراً، فيجب عليه أن يُداريَ أخلاقَ الملكِ كما يُداري السابحُ الماءَ المُغْرِقَ، والوالدان أولادَهم الصغّارَ، والحاوي الحيةَ، ويتحفظُ عن غائلته، كما يتحفظُ من السَّبُعِ والنارِ القويةِ، والمجنونِ الـذي بيـده السيفُ المسلولُ، ويجـبُ ألّا يملك ما يَصْلُـحُ للملكِ من نفائسِ الأعـلاقِ، إلا ما في نفسـه أن يبدّيه إليه، ويخدمَه بـه، وينبغي له أن يُظهر ويُشِيعَ أنَّ جميعَ ما يملِكه وتحويه يَدُه للمَلِكِ، وأنه إنما يُمسكُه ويحفظُه من أجلـه، ويجبُ عليـه ألّا يسرفَ في الإهداءِ، ولا ينحـرفَ في بذلِ ما في يدِهِ، وكمـا لا تشبـع النارُ من الحطـبِ لا يشبعُ الملكُ من الأمـوالِ، ولا بدَّ للوزيرِ من الاستظهـارِ بالذخائرِ الخفية، وقد قالَ الحكيمُ لوزيرٍ كان يستكثرُ من اعتقالِ الضيّـاعِ، ويغالي به: عليك بحفظ الدنانير التي تشتري بها روحَك مـن الملـكِ، فربما فعل ألفُ دينـارٍ ما لا تفعله ضياع، ويشتغـلُ بمئتي ألفٍ، ومـن نُكَتِ هذا البابِ: أنَّ الملكَ يريدُ كلَّ حسنٍ وطيّبٍ لنفسهِ، ويستأثرُ على والده وولده، وكذلك يقول: من ملك استأثر.

ودعا الفضلُ بنُ مروانَ المعتصمَ مرةً إلى دارِهِ واحتفلَ واحتشدَ في إحسانِ الدعوةِ، فلما حضرَ المعتصمُ ورأى مروءَته وتَجَمُّلَه، عَمِل فيه الحسُد عَمَلَه، فانقبض وزوى ما بين عينيه ولم يَنْشَطْ لطعامٍ ولا شرابٍ، وزعمَ أنه يشتكي بَطْنَه، وفَطِن الفضلُ لما دَهاهُ وأراد أن يُوهِم أن تلك الآلاتِ مستعارةٌ من دارِ أمير المؤمنين، ليطفىءَ بها نارَ الحسدِ وغضبِهِ، فتقدم إليه، وقال: يا أميرَ المؤمنين؛ أنا إنما استعرتُ أكثرَ هذه الأشياءِ من دارِ أميرِ المؤمنين، وقد أرهقني الحُزَّانُ والفرّاشُ باسترجاعها فإنْ رأى أميرُ المؤمنينَ أن يأمر لي في ردِّها فَعَلَ، فضحكَ المعتصمُ وقال: لا يتأخر قل لهم: لا يسترجعونها اليومَ، ثم نَشَطَ للطعامِ والشرابِ، وطابتْ نفسُه.

وقد قيل: لا ينبغي للوزيرِ أن يدعوَ الملكَ إلى ضيافتِه، فإنه يعتقدُ أنه يلاطفُه من ماله، وينفق على موائدِه من فوائده.

فَصْلٌ
في التَّحفُّظِ من غَضَبِ المَلِكِ وتَغَيُّرِهِ

ينبغي للوزيرِ أن يركبَ الصعَب والذلولَ، ويتقرّبَ إلى الملكِ بجهده، ولا يدخر ممكناً في توخّي مسرته، وإذا أحسَّ منه تَغَيّراً عليه، فليعملْ الحيلَ في إطفاء نارها، وتلافي أمرها، قبل أن يستحكِم سلطانُها، وقد قيل: لا يَسُلُّ سخيمةَ الملكِ، ولا يردُّ عازب رضاه، إلا ببذلِ المالِ، إذا لم يقعْ قدحٌ في مُلكِه ولم يظهَر إفشاء لِسِرِّهِ، ولم يتعرضْ لِحُرَمِهِ، وما دامَ الوزيرُ في صدرِ الوزارةِ لا تُعْوِزُه الأموال.

obeikandl.com

فَصْلٌ

في مُدَارَاةِ دَاءِ غَضَبِ المَلِكِ

يجبُ على الوزيرِ أن يكونَ من جميعِ أحوالِ الملكِ على خبرٍ، وليستكشفْ ما عندَه من خيرٍ وشرٍّ، ولا يستسلمْ لبادرته كاستسلامِ جعفرٍ بنِ يحيى لغائلة الرشيد، فإنه عَرَفَ تَغيرَه، وإزماعَه الإيقاعَ به، وأراد أن يزدادَ معرفةً له، وإيقاناً إياه فقال لإبراهيمَ بنِ المهديِّ، وكان يَوَدُّه ويخالِصُه، وكانا يجتمعان كل ليلة في مجلس الرشيد: يا حبيبي أظنُّ أنَ أميرَ المؤمنين قد تغيرَّ لي، وانطوى على غيرِ الجميلِ في أمري، فأحبُّ أن تتعرفَ صورةَ حالي لديه، من ألحاظِه، وألفاظه وتخبرني بما يصحُّ لديك منها، فقال إبراهيمُ: نعمْ وكرامة، وكان أجودَ الناسِ رأياً في أمورِ غيرِه، وأرجاهم عَوْداً في أمر نفسِه، فإذا قيل له في ذلك، قال: لأني أنظر في أمورِ الناسِ بعينِ العقلِ فأصيبُ، وأنظر في أمرِ نفسي بعينِ الهوى فأخطِئ، وشتان بينهما، ثم جعلَ إبراهيمُ في كلِّ ليلةٍ يتأملُ الرشيدَ، ويتفقد مساقطَ ألحاظِه، ومواقعَ ألفاظِه، إذا حادثَ جعفراً، فقال ذاتَ يوم لجعفرٍ: يا حبيبي قد تعرفتُ الأمرَ، فعرفتُ أنَّ الرجلَ متغيرٌ لكَ جداً ورأيتُ فيه علاماتِ الملالِ، وسوءِ الرأي، فقال جعفرٌ: قد ظهرَ لي مثلُ ما ظهرلك، فأحبَّ أن تخبرني بحقيقةِ ما شاهدتَه، لأقابلَ بها ما أشاهده، فقال إبراهيم: أراهُ يهزلُ إذا جَدَدْتَ، ويجدُّ إذا هَزَلْتَ، وهذا غايةُ التغيُّر، فقال جعفرٌ: صدقتَ يا حبيبي، فأشِرْ عليَّ برأيكِ في أمري، فقال: قد قالتِ الحكماءُ: إذا رأى الوزيرُ في الملكِ أماراتِ التغيرِ والاعتقادِ، وعلم

أنهما بلغا مبلغاً لا يقبل الإصلاحَ، فليس له إلا الفِرار، وهذا موسى كليمُ اللهِ عليه السلام يقول: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾[1] والشاعرُ يقولُ:

لا عار لا عار في الفِرار
فقد قربّني الهدي إلى الغارِ

وبعضُ السلفِ يقول: الفِرار مما لا يطاقُ من سُنن المرسلين، ولمّا جرى على جعفرٍ ما جرى، قال الرشيدُ:

لو أن جعفرَ هابَ أسبابَ الردى
لنجا بمهجته طِمِرٌّ مُلْجَمُ
ولكانَ من حَذرِ المنونِ بحيثُ لا
يرجو اللحاقَ به العُقابُ القَشْعَمُ
لكِنّه لمّا تكاملَ يومُه
لم يدفعِ الحدثانَ عنه مُنجِّمُ

(1) الشعراء: الآية (21).

فَصْلٌ

في معنى مالِ الوزيرِ

قال: كانَ الصاحبُ يظهرُ للناسِ عامةً ولفخرِ الدولةِ خاصةً؛ أنه يُعطي جميعَ ما يقعُ بيدهِ ولا يَدّخرُ لغدِه، وأن خزائنَه لم تشتملْ قطُّ على أكثرَ من خمسينَ ألفِ درهمٍ، وكان فخرُ الدولةِ يصدّقهُ ولا يغيّره، وهو يجمعُ الدنانيرَ قليلاً قليلاً، ويستودعها الثقاتَ المستورين، حتى اجتمعتْ له أربعُ مئةِ ألفِ دينارٍ وخمسون ألفاً، في خفيةٍ شديدةٍ، فلما توفّي لم يمضِ الأمد مدةً حتى رُفع إلى فخرِ الدولةِ خبرُ ودائعه، فأمر بإثارتها من مظانّها، واستخرجَ جميعِ ما كانَ عندَ الناسَ، وحصّلَ ذلك، فقال لأبي محمدٍ بنِ عبدِالله ابنِ محمدٍ الخزانِ يوماً: قد نافقني الصاحبُ وخانني بهذه الدنانير التي جمعها، فيا ليتَ شعري ما كانَ غرضُه فيما لم ينتفعْ به؟ قال أبو محمد: فقلت له: إنه قد جَمع في هذا الجمعِ بين ثلاثِ فوائدَ، قال: وما هي؟ قلت: السلامةَ من طمعِكَ، والاستظهارَ بالدنانير التي هي قُرة العينِ وقوةُ الظهرِ، وإقامةَ الخدمة بعد الوفاة، كما كانَ نعيمها في الحياة، إذ علِم أن ذلك لا يخفى أثرُه وخبرُه، وأن مرجعَه إليك، فقال: صدقت ودمعت عيناه وترَحّم عليه.

obeikandl.com

فصل

في اختيار ما يُهْدِي الوزيرُ إلى المَلِكِ

الياقوتُ لِحُسْنِهِ وعزه وجوده، ولأنه أكرمُ الجواهرِ، وأشرفُها، ولأن الماءَ والنارَ لا يغيرانه.

الفيروزجُ للنقالِ باسمه.

المسكُ والعنبرُ والعودُ الهنديُّ، لأنها أشرفُ الطيبِ، واستعمالهُا سُنةٌ، ومنفعة، ومُروءةٌ.

الدراهمُ والدنانيرُ لنفاقهما، وحاجةِ كلِّ الناسِ إليهما، ولأن مدارِ الأمورِ عليهما.

السُّكَّرُ لحلاوتهِ.

كل ما كان فائقاً ونادراً من الثياب، والدوابُّ الغُرةُ المحجلةُ، ومن الجوارح.

ومن السلاحِ كلُّ مَا راقَ منظرهُ وحَسُنَ مخبرُه واستوتْ خِلقتهُ.

ومن الغلمانِ والجواري، ومن الثيابِ المربعة النظيفة. الراح، لأنها تورِثُ الارتياحَ.

كلُّ شيءٍ له نسيمٌ طيبٌ من عِطرٍ وريحانٍ، أو اسم حسن بالعربيةِ والفارسيةِ، ويحملُ جميعَ ذلك في وقتهِ وأوانه، مع رسولٍ حسنِ الوجهِ والاسم، نظيفِ الثوبِ خالٍ من العيبِ.

obeikandl.com

فَصْلٌ

في أعداءِ الوزيرِ

ليس لأحدٍ من الأعداءِ والحُسَّادِ ما للوزيرِ، فينبغي أن يبلغَ كلَّ مبلغٍ من يعرِّفه أمورَهم، وينصب العيونَ والجواسيسَ على استكشافِ أحوالِهم، فإذا صحّتْ له عداوةُ أحدهِم رَفَقَ به، كما يرفُقُ بالزجاج الشاميّ، ثم ضربه عند انتهازِ الفرصةِ بالحجرِ أو ضربِ الحجرِ به، ولا تحتقر العدوَّ والصغيرَ لهوانه، وامتثلْ قولَ الشاعر:

ولا تحقرَنَّ عدواً رماك
وإن كان في ساعديه قِصَرْ
فإنَّ السيوفَ تحزُّ الرقاب
وتعجز عمَّا تنالُ الإبرْ

وقال آخر:

لا يستخفنَّ الفتى بعدوِّه
أبداً وإنْ كان العدوُّ ضئيلا
إن القذى يؤذي العيونَ قليلهُ
ولربما جرحَ العيونَ قليلا

ومن حقه ألاَّ يفترَّ بإظهارِ الصداقةِ، فإن الماءَ وإن أطيل إسخانه يطفئُ النارَ إذا تمكَّن منها، ومنْ أهمِّ المهماتِ الاحتياطُ على ما يأكلهُ ويشربُه، وتوقي السُّمِّ الذي يخفى غوائله، أعاذ الله مولانا من الأسواءِ، وكفاه عوادي الأعداءِ.

obeikandl.com

فَصْلٌ

في التأني، والوزيرِ القادرِ

حقيـقٌ بالتأني في حكوماتِـه، والتلبُّثِ في عزماتهِ، لأنــه إن أنفذها على شُبهةٍ، وأمضاها على غير بيِّنة، لم يكن له دافعٌ عنها، ولم يخلُ من مساعدٍ عليهـا، أما بعُذرِ الدافع فلقلّةِ المجترئ عليــه، وأما تيسير المساعدِ، فلكَثْرةِ المتَقَرِّب إليه.

obeikandl.com

obeikandl.com

فَصْلٌ
في رعايةِ الحُرمَةِ

ينبغي للوزير أن يرى رعايةَ الحرماتِ لأصحابها، وإيجابَ الحقوقِ لأربابها ديناً مُقترضاً، بل ديناً مفترضاً، ومن أفخرِ مناقبِه أن يكونَ إذا أعطى خدَمه في حال الاستخدامِ جانباً من البسط والأذى، لم يعقبه في حال الاستغناء بجانب من القبض والإفضالات، قضاياه منفذةٌ، وسجاياه مسفرةٌ. وفي طباعِ الناسِ أن يحرصوا على القليل من اصطفائه، أضعافَ حرصهم على الكثيرِ من أمواله، وأن يغتبطوا منه القربةَ، ويحزنوا عند اعتراض النَّبوة، فإذا حفظهم فيما يستودعونه من ودائع الحُرمة، وحفظَ عليهم ما يرقيهم إليه من شرفِ الحظوة، واستبدَّ بذلك مواد النصائحِ واجتلبها من كل دانٍ ونازح.

obeikandl.com

فَصْلٌ

في المباحثةِ والمذاكرةِ

الوزيـرُ الفاضلُ وإن كان راجحاً على فضـلاءِ حضرتهِ فيما يحسنونه، سابقاً لأهـلِ الرأيِ من نصحائـه وثقاته فيما يوردونـه، ويصدرونه، فإنه يشاورهـم، أخذاً بالاستظهارِ، وزيادة الاستبصـار، ويُباحِثُ ذوي الآدابِ، إقامةً لسنةِ المباحثةِ وإحياء لرسم المذاكرة، إذْ له فيها فائدتان؛ إحداهما: التنبيه على شُكرِ النعمةِ فيها، والأخرى: التحفظُ من أن يشذَّ عنه بعضُها، وأخلق به أن يجني ثمرتهما.

obeikandl.com

فَصْلٌ
في الرِّفقِ

ينبغـي أن يبلـغَ من تأنِّيه ورفقهِ ودقةِ مدخلهِ أن يؤلِّـفَ بينَ الماءِ والنارِ، ويجمعَ بين الضبِّ والنونِ، ويداوي القلوبَ، ويعالج الأهواء، ويبرئ من سُقْمِ الرأي، كما يداوي حُذاقُ الأطباءِ عللَ الأبدانِ.

obeikandl.com

obeikandl.com

فَصْلٌ

مجملٌ مجرَّدٌ في مصالحِ الوزارةِ ديناً ودُنيا

الإنابـةُ إلى اللهِ عـزَّ وجـلَّ وإيثارُ العـدلِ والإحسانِ، وإدامـةُ شكرِ اللهِ علـى استمـرارِ السلامـةِ في كلِّ يـومٍ، وبثُّ الصدقـاتِ، واتبـاعُ الصلواتِ واستـدراكُ الأموالِ، من وجوهها، وصرفُهـا في حقوقِها، واستخدامُ عقولِ العقـلاءِ والحكماءِ في إصلاحِ أمورِ المملكةِ وتهذيبِها، وكفايةُ أمورِ الأعداءِ، واستجلابُ أدعيةِ الضعفاءِ المظلومين بالخيرِ بتقصيرِ أيدي الظلمةِ، وبذل المجهودِ في نصيحةِ السلطانِ، وحسُنُ الثناءِ عليه وإظهارُ آثارِ الشفقةِ عليه، والعنايـةُ التامّةُ بتعرفِ الأخبارِ قرباً وبعداً ليكونَ في بياضِ كلِّ يومٍ، وسوادِ كلِّ ليلةٍ على خُبرٍ، من جميع أحوالِ الملك سراً وجهراً، وتركُ الرضا بوصولِ كلِّ أحـدٍ إلى مجلسِ الملكِ، ممن ليس له بأهلٍ وقضاء حاجةٍ ممكنةٍ لسياق ملاطفـةِ خواصّ الملك، وحاشيته، بكل مـا يستدعي موالاتهم، ومشايعتهم وتركُ التشفي ممن ينطوي على حِقدٍ أن ليستّ مع الوزراءِ سخيمةُ الجري على معنى قولِ من قال:

ولا هو في الدنيا يضيعُ نصيبه

ولا عَرَضُ الدنيا عن الدينِ شاغِلُه

وإكرامُ أصحابِ السيوفِ، وأصحابِ الأقلامِ عند الغضب، والوقارُ عند الطربِ والغلظُ علـى أهل العناد، والانعطافُ على أهلِ الوداد، والنظرُ إلى العواقـبِ من بُعدٍ، وتناول الغاياتِ عن قربٍ، وقبضُ اليد عن مُقَارَفَة الآثامِ وتقييدُ اللسانِ عن جهرِ الكلام.

obeikandl.com

وهذا آخر الكتاب والله أعلم بالصواب

وأردفتُ هذا المختصرَ بكلامٍ حسنٍ معتبر، من ألفاظِ الحكماءِ، وفصلِ السادةِ الفهماءِ ليتمسكَ الخاطرُ به مسكاً، ويكون ختامهُ مسكاً، قال بعضُ الحكماء:

ينبغي أن تداري الزمانَ مداراةَ السابحِ للماءِ الجاري.

لا تقطعْ كلامَ من يحدثُك فإنه خارجٌ عن خِصال الأدب.

وقال (أفلاطون): الصورةُ الحسنةُ بلا أدبٍ، كأواني الذهبِ فيها الخلُّ.

وقال (أرسطو): إذا تعلّمَ الجاهلُ شيئاً من الأدب، استحال ذلك الأدبُ فيه جهلاً، كما يستحيلُ طيبُ الطعامِ في جوفِ المريضِ داءً.

ظاهرُ العِتاب مِن مَكتومِ الحقدِ.

ضربةُ الناصحِ خيرٌ من محبةِ الشانئِ.

إذا قامتْ حجتُكَ في المناظرةِ على الكريمِ أكرمَك ووقَّرَكَ، وإذا قامتْ حجتُكَ على اللئيمِ عاداك، ونال من عرضِكَ.

البخلُ في الملوكِ عارٌ، والبطالةُ في الأحداثِ ذلٌّ، والشَرهُ في المشايخِ جهلٌ، والوقاحةُ في الأحرارِ تدلُّ على رداءةِ الأصلِ، لأن الرجلَ يُستَدّلُ على عقلِه بقولِه، وعلى أصلِه بفعله.

قال بعضُ الحكماءِ: أربعةٌ من علاماتِ الإيمانِ: حسنُ العفافِ، والرضا بالكفاف، وحفظُ اللسانِ، والاعتقالُ بالإحسانِ.

وأربعةٌ من علاماتِ النفاقِ: قِلّةُ الديانةِ، وكثرة الجناية، وغِشُّ الصديقِ، ونقضُ المواثيقِ.

وأربعةٌ لا تَنفكُ من أربعة: الجهولُ من السقطَ، والغفولُ من الغلطِ، والعجولُ من الزللِ، والملوك من العلل.

وأربعةٌ تتولد من أربعة: الشرُ من المازحةِ، والبغضُ من المواجهةِ، والوحشةُ من الخلافِ، والشرَهُ من الاستخفافِ.

وأربعة لا تنتصفُ من أربعة: شريفٌ من دني، ورشيدٌ من غَوي، وبَر من فاجرٍ، ومنصفٌ من جائرٍ.

وأربعةٌ تدل على الجهل: صحبةُ الجهولِ، وكَثرةُ الفضولُ، ومشاورةُ الحمقى، وطاعةُ الهوى.

وأربعةٌ تدلُّ على الإدبار: سوءُ التدبيرِ، وقبيحُ التبذيرِ، وقِلّةُ الاعتبار، وكَثْرةُ الاغترار.

وأربعةٌ توصلكَ إلى أربعةٍ: الصبرُ إلى المحبوبِ، والجِدُّ إلى المطلوبِ، والزهدُ إلى التقى، والقناعةُ إلى الغِنى.

وأربعةٌ ترتقي إلى أربعةٍ: العقلُ إلى الرياسةِ، والرأيُ إلى السياسةِ، والعلمُ إلى التقى، والحلمُ إلى التوقيرِ.

وأربعة من علاماتِ اللؤمِ: إفشاءُ السرِّ، واعتقادُ الغدر، وغِيبة الأحرارِ، وإساءة الجوار.

ثلاثةٌ لا تعدمُ الرشدُ منها: مشاورةُ ناصحٍ، ومداراةُ حاسدٍ، والتحببُ إلى الناسِ.

وثلاثةٌ فيها راحةُ الإنسانِ: الزوجُ الموافقةُ، والولدُ البارُّ، والصديقُ الصافي.

وثلاثةٌ من رُزِقَها نال الغنى: القناعةُ بما أُعطي، واليأسُ مما في يدِ غيرِه، وتركُ الفُضولُ.

الجاهلُ صغيرٌ وإن كان شيخاً، والعاقلُ كبيرٌ وإن كان حَدَثاً.

الكذابُ لصٌّ؛ لأنَّ اللصَ يسرقُ مالَك، والكذابُ يسرقُ عقلَك.

الأدبُ عندَ الأحمقِ كالماءِ العذبِ في أصولِ الحنظلِ، كلما ازدادَ رَواءً ازداد مَرارةً.

ما تخافُ من انتهائها اتْرُكْهُ في ابتدائه.

الأغنياءُ اللئامُ يُشْبهونَ البغالَ التي تحملُ الذهبَ وتعتلفُ التبنَ.

مَنْ استعملَ السماحَة لم يزل في راحة.

مَنْ ندِمَ على ذنبه استحق العفوَ من ربِّه.

مَنْ أحسنَ السياسةَ استحق الرياسةَ.

من أطاعَ هواه باع دِينَه بدنياه.

كلامُ العاقلِ قوتٌ وكلامُ الجاهلِ السكوتِ.

طولُ اللسانِ يهلكُ الإنسانَ.

مَنْ صحَب الأحرارَ تجنَبِ الأشرارَ.

مَنْ كرمتْ عليه نفسُه هانَ عليه مالُه.

الكريمُ يلينُ إذا استُعْطِفَ والجاهلُ يقسو إذا لُطِّفَ.

مَنْ بلّغكَ النميمةَ فقد واجهكَ بالشتيمةِ.

الإحسانُ إلى الخادمِ يكبتُ العدوَّ، والغسلُ بالنخالةِ يورث الفقرِ، والتعاطي بالنجومِ بالاعتقادِ يورثُ الكفرَ.

ومَنْ أكثرَ التفكرَ في ذاتِ اللّهِ تزندقَ.

وقيل (لبقراط) لَمَ لا يُرَى عليك أثرُ الحزنِ؟ قالَ: لأني لم أتخذ من الدنيا ما إنْ فقدتهُ أحزنني، وأخذَ هذا المعنى بعضُ الشعراءِ فقال:

ألم ترَ أنَّ الدهرَ يهدمُ ما بنى

ويأخذُ ما أعطى ويفسدُ ما أسدَى

فَمَنْ سرّه ألاَّ يرى ما يسوؤهُ

فلا يتخذْ شيئاً يخافُ له فَقدَا

قالَ: راحةُ الحكماءِ في وجودِ الحقِ، وراحةُ السفهاءِ في وجودِ الباطلِ.

من استحيا من الناس ولم يستحِ من نفسِه فلا قدرَ لنفسِه عنده.

من يجترئ على الناسِ أحبَّ الناسُ زلتَه.

مَنْ كثر صدقهُ جاز كذبُه، ومن كَثُرَ كذبُه لم يجزْ صدقُه.

مَنْ عُرفَ بالحكمةِ لاحظتهُ العينُ بالوقارِ.

وقالَ بعضُ الحكماءِ: أربعةُ أشياءَ ثمرتهُا مكروهةٌ: اللجاجُ، والعجبُ، والعجلةُ، والشَرهُ، فأما اللجاجُ: فثمرته الحيرة، وأما العجبُ: فثمرته البغضاءُ، وأما العجلةُ: فثمرتها الندم، وأما الشرهُ: فثمرتها الفقر.

أربعةُ خصالٍ تُصفي مـودة أخيكَ: أن تبتدأه بالسلام، وترفعَ مجلسَه، وتُكنيه بأحبِّ كنيةٍ إليه، وتطعمُه من طعامِك.

السعادةُ في ثلاثٍ: العلم والعقل والتمييز.

العقلُ في ثلاثٍ الصدق والحلم وحسن المداراة.

الجهلُ في ثلاث: الكذب والشرَه والغضب.

والحزم في ثلاثٍ حفظ الفطنةِ وحفظ الجارِ وصلة الرحمِ.

حسـنُ الخلقِ في ثلاثٍ: اجتناب المحـارمِ، والسعة على العيالِ، والطلب من الحلال.

الأُخُوَّةُ في ثلاث: المودة والنصيحة والمواساة.

العافيةُ في ثلاثٍ: حفظِ الجوارحِ، وتركِ الغيبةِ، واجتنابِ النميمةِ.

ثلاثةٌ لا ينبغي للعاقلِ أن يؤخرَها: دفنُ الميتِ وتزويجُ البنتِ إذا أدركت، وفعلُ الخيرِ.

قيل: الرجالُ أربعةٌ: رجلٌ يدري ويدري أنه يدري، فذاك عالمٌ، فاسألوه، ورجـلٌ يدري، ولا يـدري أنه يدري، فـذاك نائمٌ، فنبهوه، ورجـلٌ لا يدري، ويـدري أنه لا يدري، فذاك مسترشد، فأرشـدوه، ورجلٌ لا يدري، ولايدري أنه لا يدري، فذاك جاهلٌ، فارفضوه.

إذا كنـتَ لا تدري ولم تكُ بالذي
يَسـأل مَنْ يدري فكيف إذاً تدري

جهلتَ وما تدري بأنك جاهلٌ

فَمنْ لي بمن يدري بأنكَ لا تدري

إذا جئتَ في كلِّ الأمور بغمّةٍ

فكن هكذا أرضاً يطأك الذي يدري

ومِنْ عجبِ الأشياءِ: أنك لا تدري

وأنكَ لا تدري بأنك: لا تدري

وقال لقمانُ لابنه: يا بُنيَّ تعلَّمْ: لا أدري، فإنكَ إنْ قلتَ: لا أدري علّموكَ حتى تدري، وإن قلت: أدري، سألوك حتى لا تدري.

قال نصرٌ بنُ (بختيار) سمعتُ من عظماءِ التركِ حكمةً، يتداولونها بينهم، وهي: أن الرئيسَ الذي يقودُ عسكراً، ينبغي أن يكون فيه عَشرُ خصالٍ من خصالِ البهائمِ سخاءُ الديكِ، وتحننُ الدجاجةِ، وجمعُ النملةِ، وشجاعةُ الأسد، حملةُ الخنزيرِ، وروغانُ الثعلبِ، وصبرُ الكلبِ على الجراحات، وحراسةُ الكركيِّ وحذرُ الغرابِ، وغارةُ الذئبِ.

وقال أميرُ المؤمنين عليٌّ كرم الله وجهه: كفى شرفاً بالعلم أنه يدعيه من لا يُحسنه، ويفرحُ إذا نُسبَ إليه، وكفى بالجهلِ ضيعةً وخمولاً أنه يتبرأُ منه مَنْ هو فيه، ويغضبُ إذا نُسب إليه.

من لم تؤدبه الكرامةُ، قوّمته الإهانةُ.

من خبُثَ عنصرهُ ساء محضرهُ.

من حَسُن خُلقه كَثُر إخوانهُ.

مَنْ جهلَ قدرَ نفسهِ فهو بقدرِ الناسِ أجهلُ.

مَنْ أَنِفَ من عملِ نفسهِ اضطر إلى عملِ غيرهِ.

من قاسَ الأمورُ عرفَ المستور.

ألأمُ الناسِ مَنْ سعى بإنسانٍ ضعيفٍ إلى سلطانٍ جائرٍ.

ثلاثةٌ لا يجتمعن إلا في كريم: حسنُ المحضرِ، واحتمال زلات الإخوانِ، وقِلّةُ ملامةِ الصديقِ.

قالَ بعضُ الحكماءِ: إذا صاحبتَ السلطانَ فلتكن مداراتُك له مداراةَ القبيحةِ يبغضها زوجها وهي تحبه، فإنها لا تدعُ التصنعَ بكلِّ وجهٍ وحيلةٍ.

منِ كلامِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ عليه السلام: أعجب ما في الإنسانِ قلبهُ، وله مواد من الحكمة، أضدادهُا، إن سنحَ له الرجاءُ أذله الطمعُ، وإن هاجَ به الطمعُ أهلكه الحرصُ، وإن ملكَه اليأسُ قتلَه الأسفُ، وإن عرضَ له الغضبُ اشتدَّ به الغيظُ، وإن أسعِدَ بالرضا نسيَ التحفظَ، وإن ناله الخوفُ أضرّه الحذرُ، وإن اتسعَ له الأمنُ استلمته الغِرَّة، وإن جُددتْ له النعمةُ أخذته العزة، وإن أصابتهُ مصيبةٌ فضحَه الجزعُ، وإن اشتدَّ به الجوعُ عذّبه الضعف، وإن أفرطَ في الشِّبَعُ كظتّهُ البطنةُ، فكل تقصير به مضرٌ، وكلُّ إفراطٍ به مفسدٌ.

واللّهُ أعلمُ وأحكمُ، وعليه خَتمُ الكتابِ، والحمد للهِ ربِّ العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين